شعر النساء في الأدب الأندلسي

قضاياه وظواهره الفنية

إعداد

د/ عبير عبدالصادق محمد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

.. .. لم يظلم تراث إنسانى أدبى بقدر ما ظلم تراثنا الأندلسي أدباً ونقداً.

.. وقد ساهمت المرأة العربية فى إثراء الأدب الأندلسي.

وأرجو أن يكون هذا البحث نقطة إنصاف للأدب الأندلسي ، وللمرأة العربية بصفة عامة والأندلسية بشكل خاص....

الباحثة

المقدمة

نبغ كثير من النساء فى الشعر بالأندلس مما كان له أثر كبير فى نهضة حركة الشعر بصفة خاصة والنهضة الأدبية بشكل عام.

ولا غرو فقد اتيحت الفرصة للمرأة الأندلسية فى ميدان التعلم والثقافة، مما صقل شخصيتها ووسع آفاق تفكيرها، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى مجتمعها.

كما كان لبعض المتأدبات منتديات أدبية يؤمها الرجال والنساء على حد سواء، وتعتبر ندوة ولادة بنت المستكفى مثالاً لهذا اللون من النشاط النسائى وتحرك المرأة فى الأندلس.

وكانت بعض المتأدبات يترددن على منتديات الرجال الأدبية مما أدى إلى إثرائهن للحركة الأدبية وللشعر ، وكان جهدهن واضح الأثر، رائع البهاء، صافى النقاء. « فكن فيه كأزهار الشقائق بلونها الزاهى الأرجوانى تشرئب متميزة مختالة وسط بساط الأقاح الذى يغطى السهول ويوشى السفوح مع إطلالة الربيع»[1].

ومن الملاحظ أن المرأة الأندلسية قد تمتعت بكامل حريتها الفعلية والقولية، مما أتاح لها أن تشارك فى كل فنون الشعر وأكثر أبوابه، فكانت تمدح وتفخر وترثى وتهجو وكانت تتغزل فى الرجل تماماً كما يتغزل الرجل فيها، وتصف محاسنها. وكانت تساجل الرجل قصيدة بقصيدة وقافية بقافية جادة حينا وهازلة أحياناً.

وبهذا كان للمرأة حظ وفير من الشعر، وهى ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية.

ولقد خصص المقري فصلاً كاملاً من كتابه « نفح الطيب» على شاعرات الأندلس.

---

(١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه د/ مصطفى الشكعة /ط/ دار العلم للملايين /١١٧.

ولو أن ما أورده عنهن كان مقتضباً للغاية، رغم أنه عد منهن أربعاً وعشرين شاعرة [1]، وإذا كن فى جملتهن شاعرات مجيدات، فى ضوء القليل الذى وصلنا من شعرهن، فبينهن من بلغت فى مجال الإجادة شأواً بعيداً، ومن فاقت الشعراء المحترفين.

وقد قدم المقري لحديثه عنهن بقوله:

« وإذا وصلت في هذا الموضع من كلام أهل الأندلس، فقد رأيت أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولى في البلاغة، كى يُعلم أن البراعة فى أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتى فى نسائهم وصبيانهم»[2].

۞۞۞

هذا وقد أفردت هذه الدراسة لشواعر الأندلس موضحة العوامل التى أثرت فى شعرهن، وأهم الأغراض التى قمن بمعالجتها، مبرزة أهم سمات وخصائص هذا الشعر، ملقية الضوء على دورهن الأدبي وأثرهن فى الحركة الشعرية الأندلسية.

---

(١) **هن :**

١) أم السعد بنت عصام الحميرى.
٢) حسانة التميمية.
٣) أم العلاء بنت يوسف الحجارية.
٤) أمة العزيز.
٥) أم الكرام الصمادحية.
٦) الغسانية البجانية.
٧) العروضية مولاة أبى المطرف بن غلبون
٨) حفصة بنت الحاج الركونية.
٩) ولادة بنت المستكفى.
١٠) اعتماد الرميكية.
١١) العبادية جارية المعتضد.
١٢) بثينة بنت المعتمد.
١٣) حفصة بنت حمدون.
١٤) زينب المرية.
١٥) غاية المنى.
١٦) حمدة بنت زياد المؤدب.
١٧) عائشة بنت أحمد القرطبية.
١٨) مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى.
١٩) أسماء العامرية.
٢٠) أم الهناء بنت القاضى بن عطية.
٢١) مهجة القرطبية.
٢٢) هند جارية أبى محمد الشاطبى.
٢٣) الشلبية.
٢٤) نزهون الغرناطية.

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب/ للمقرى / تحقيق/ إحسان عباس ط/ دار صادر بيروت /١٦٦/٤.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدمة وتمهيد وتليها خاتمة توضح أهم نتائج البحث، رصدت فى التمهيد المؤثرات العامة التى ساعدت على نضوج شعر الأندلسيات ، ثم جاء الفصل الأول بعنوان :

« **شواعر الأندلس ـ أغراض الشعر وميادينه** ».

وجاء الفصل الثانى تحت عنوان :

« **شواعر الأندلس ـ قصص الغرام المشبوب** ».

وجاء الفصل الثالث والأخير بعنوان :

« **شواعر الأندلس ـ ملامح فنية** »

تناولت فيه ملامح ذلك الشعر من حيث المضمون والمتحوى والتشكيل اللغوى والأسلوبى، والتجربة الشعرية ثم الصورة الشعرية وأخيراً الموسيقى .

ثم كانت **الخاتمة** وأهم نتائج البحث.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الباحـــثة

تمهيد

شواعر الأندلس ـ بواعث الشاعرية

المؤثرات العامة التى ساعدت على نضوج شعر الأندلسيات

أولاً: الطبيعة:

فتن سكان هذه الجنات الألفاف بحب الطبيعة الوارفة الظلال، وعكفوا عليها، ومتعوا أبصارهم بجمالها ، وصورها فى خيالاتهم الذهنية والأدبية ، تصويراً أميناً عبَّر عن محاسنها ومفاتنا، ثم تجاوبوا معها روحاً وفناً فأمدتهم بكل رائع جميل، من خلال التفاعل الكيمائى بينهم وبين طبيعتهم الثرة بألوان الجمال.

فطبيعة البلاد تفرض نفسها على الناس فرضاً.. .. فى روابيها المشرقة ووديانها المنبسطة، ومغانيها الضاحكة وينابيعها المتدفقة، ومروجها الخضر، وأفاقها الحالمة وأجوائها الناسمة وأدواحها المظلة وخمائلها الفاتنة، يهزهزها الهفيف والحفيف.. .. وأنهارها الملتفة كأساور المعاصم على الهضاب العالية تكسوها النباتات اليانعة والأشجار الباسقة.

ومن خلال النظر فى الكتب [1] التى وصفت الجزيرة الخضراء نستطيع أن نأخذ فكرة عامة عن طبيعة شبه الجزيرة الأندلسية نتعرف معها على خصوبة أرضها ووفرة مياهها وطيب مناخها وجمال مناظرها وغزارة نتاجها وحلاوة فاكهتها، وكثرة جباياتها، ولا نكاد نجد مدينة أو قرية إلا وهى عامرة بخيراتها، مفاخرة بخصوبتها، مكاثرة بحاصلاته.

وقد أفاض مؤرخو العرب فى وصف مشاهدها، كما أفاض الشعراء فى التغنى بمناظرها. يقول ابن سعيد: « ميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد أحدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنيع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها، فهى كما قال بعض الشعراء فيها:

---

(١) مثل كتاب « المُغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد، وصفه جزيرة الأندلس للحميرى، وكتاب « فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس» لابن غالب، ونفح الطيب للمقرى، والإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب. وغيرها.

لاحتْ قُراها بين خضرة أَيْكها ∴ كالدِّربين زبرجدٍ مكنونِ

ويقول ابن اليسع إنه « لا يتزود فيها أحد ما حيث سلك لكثرة أنهارها وعيونها، وربما لقي المسافر فيها فى اليوم الواحد أربع مدائن ومن المعاقل والقرى ما لا يحصى، وهى بطاح خُضْر وقصور بيض»[1].

فقد وهبت طبيعة الأندلس الشعراء والشواعر براعة التصوير فى أطر أدبية رائعة، تنعم بالحياة اللدنة، وتنبض بالأحاسيس المرهفة، ومن هنا دونوا مشاعرهم الفوارة وعواطفهم الجياشة تجاهها بصور موحية قوامها إثارة المشاعر وهَيْجُ الأحاسيس فحببوها إلى النفوس وعلقوا بها الأفئدة[2].

«فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يقلبون النظر فى خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع، فأخذوا ينظمون درراً فى وصف رياضها ومباهج جناتها بعد أن حببت إلى نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها – كما يقول ابن خفاجة – جنة الخلد بمائها وظلها وأنهارها وأشجارها:

يا أَهلَ أندلس لله درُكمُ ∴ ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجارٌ

ما جنة الخلد إلا فى دياركم ∴ ولو تخيرت هذا كنت أختار

فالبيئة الطبيعية، بكل ما فيها من أشياء إنما هى الشرط الأول لكل كيان اجتماعى، وهى الملهم الأول لكل فكر إنسانى، وهى القوة المحكمة لكل فن من الفنون، والفن فى جوهره ليس تقليداً أعمى للطبيعة بقدر ما هو استلهام لها وأخذ منها وتفاعل معها.. .. تفاعل هو تعبير عن التأثر بها والتأثير فيها.. [3].

وبالطبيعة يشيد ابن سفر المرينى أيما إشادة فيقول:

فى أرض أندلسٍ تلتذّ نعماءُ ∴ ولا تفارقُ فيها القلب سراءُ

وكيف لا تُبهج الأبصارَ رؤيتها ∴ وكل روضٍ بها فى الوشى صنعاءُ

---

(١) نفح الطيب /١/٩٨.
(٢) انظر: فى الأدب الأندلسى د/ جودت الركابى/ ١٣٠.
(٣) راجع الادب الأندلسى/ د/حكمة الألوسى/ ٥٣.

أنهارهـــا فضـــةٌ والمســـكُ تربتُهـــا ∴ والخـــزُّ روضـــتها والـــدُّر حَصْـــباءُ

وقد فجرت الطبيعة الساحرة طاقات شاعرات الأندلس، فوصفنها بأروع الأشعار، ومنهن شاعرة [1] وادى آش وهو واد جميل غير بعيد عن غرناطة يمتاز بسحره وجماله وغرناطة برياحينها ونضرتها، كل ذلك خليق بأن يوحى شعراً رائعاً فى وصف الطبيعة. فوصفت **حمدونة بنت زياد** واديها بأجمل ما يوصف به واد، فرسمت له صوراً، وفتقت حوله معانى من أبرع ما رسم من صور وأرق ما فتق من معان. تقول فى وصف الوادى:

وقانـــا لفحـــة الرَّمْضـــاءِ واد ∴ ســـقاهُ مضـــاعفُ الغيـــثِ العمـــيمِ

حَللنـــا دوحـــةً فحنـــا علينـــا ∴ حنـــو المرضـــعاتِ علـــى الفطـــيمِ

وأَرشـــفنا علـــى ظمـــا زُلالاً ∴ ألـــذَّ مـــن المدامـــة للنـــديمِ

يَصُـــدُّ الشـــمس أنّـــى واجهتنـــا ∴ فيحجُبهـــا ويـــأذن للنَّســـيمِ

يَـــرُوع حَصـــاه حَاليـــة العـــذارى ∴ فـــتلمسُ جانـــب العِقـــد النَّظـــيمِ

لقد رسمت حمده صوراً كثيرة بهيجة الألوان والظلال لواديها، ولا عجب فقد عاشت فى رحاب الطبيعة، ومرحت على ضفاف نهر واديها.

وهذه **أم العلاء بنت يوسف الحجارية** من وادى الحجارة، وهو وإن كان واديا غير خصيب فى نتاج الأرض إلا أنه خصيب فى نتاج الشعر والعلم، ونظرت أم العلاء فى واديها فلم تجد سوى القصب، فاستطاعت أن ترسم صورة جذابة خلابة لقصب واديها؛ فجعلته يهفو نديا فى كف الرياح فبدا كالبنود ترفرف على خفقات النسيم وقد ارتكزت قوائمها الواحد يتلو الآخر[2].

تقول :

للهِ بُســـــــــــــتانى إذا ∴ يَهْفُـــوبـــه القَصَـــبُ المَنَـــدَّي

فكأنَّمـــا كـــف الرِّيـــا ∴ حِ قـــد أسْـــنَدت بَنْـــدا فبنْـــدَا

---

(١) حمدون بنت زياد. ويقال حمدونه بنت زياد المؤدب ، سيأتى الحديث عنها تفصيلاً .

(٢) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه: د/ مصطفى الشكعة /١٧٦ بتصرف.

فقد زينت الصورة بهذا التشبيه الرائع من خلال وصف الطبيعة فى واديها المتواضع. وهى صورة تناسب أم العلاء كسيدة عرفت بالفضل والحفاظ على طيب سمعتها.

فالأندلس كانت ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها، مما يأخذ بالألباب، ويسبح فى روعته الخيال، ويبعث على تذوق الجمال، ومجاراة الطبيعة فى بهائها ونضرتها، وقد امتازت هذه البلاد بين الأقطار التى فتحها العرب بجمال طبيعتها: من أشجار باسقة وثمار يانعة، وأنهار جارية، وجبال خضر، وطيور مغردة، وأبنية شاهقة،وقصور جميلة، ووجوه نضرة، ونسيم عليل، فملك كل ذلك من نفس العربى، ورقق من شعوره، وهذب من خياله، وصقل من ذوقه، وزاد من جمال شعره، وجعل للأندلسيين والأندلسيات صبغة خاصة فى الأدب العربى، وفتح أمامهم باباً واسعاً من الخيال.

ثانياً: مجالس الشعر:

كان الملوك فى الأندلس يعقدون مجالس الشعر؛ لأنهم كانوا يتذوقون الأدب، ويقرضون الشعر، وكانت تلك المجالس يتصدرها الشعراء أصحاب البديهة الطيعة والذهن اللماح والقريحة الوقادة والفكر الثاقب والعقل اليقظ إلى جانب العلماء الأعلام والأدباء الكبار والرواة الحفظة..

وكان الشعر صاحب القدح المعلى فى هذه المجالس، ففيه نشوة الشارب، وغناء الراقص، ولغة الكؤوس، وأدب النفوس. كان الشعراء الأندلسيون يعارضون المشارقة ويحاكونهم مولعين بأشعارهم فاستطاعوا أن يلبسوا الشعر الأندلسى حُللاً جديدة ؛ ولاهتمام الملوك والأمراء بتكريم الشعراء ما فيه من بعث الهمم واستنهاض القرائح، والنهوض بالشعر والأدب، فاستنفذ الشعراء مواهبهم فى مدائحهم، واستخرجوا من أذهانهم ومخيلاتهم درراً ثمينة وجواهر كريمة فنهض الشعر وازدهر إلى أقصى حد ممكن حتى ليظن الإنسان أن كل أهل الأندلس أصبحوا شعراء.

ولقد كان للمنصور بن أبى عامر مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل الأدب والعلم، للمناظرة بحضرته، وكان للمعتمد دار مخصوصة بالشعراء وديوان تقيد فيه أسماؤهم، وقد جعل لهم يوما يفرغ لهم فيه فلا يدخل عليه غيرهم(١).

ومن ذلك أن المعتمد بن عباد كان مع ابن عمار ووزيره، وقد ركبا النهر يوماً للتنزه، فمرت الريح فزردت صفحة الماء فقال لابن عمار(٢): أجز:

« صَنَعَ الريحُ من الماء زَرَدْ».

فأطال ابن عمار الفكرة، فقالت امرأة من الغسالات:

« أىّ درعٍ لقتالٍ لوجَمَدْ»

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به، مع عجز ابن عمار، ونظر إليها، فإذا هى صورة حسنة، فأعجبته فسألها: أذات زوج هي؟ فقالت: لا، فتزوجها. وولدت له أولاده الملوك النجباء، رحمهم الله تعالى(١).

---

(١) نفح الطيب /٢/٢٨٢.

(٢) أبى بكر محمد بن عمار، المتوفى ٤٨٢هـ.

ولما خُلع المعتمد وسجن بأغمات قالت له: يا سيدى هُنّا هُنا، فقال:

قالت لقد هُنَا هُنا ∴ مولاى أين جاهُنا

قُلتُ لها إلهُنا ∴ صيرنا إلى هنا

وحكى أنها قالت له وقد مرض: يا سيدى، مالنا قدرة على مَرْضاتك فى مرضاتك.

ولما قال الوزير ابن عمار قصيدته اللامية الشهيرة فى المعتمد، والرميكية أغرت به المعتمد حتى قتله، وضربه بالطبرزين ففلق رأسه، وترك الطبرزين فى رأسه، فقالت الرميكية:

قد بقى ابن عمار هدهداً

والقصيدة أولها:

ألا حيَّ بالغرب حيّاً حِلالاً ∴ أنا خُوا جمالا وحازوا جَمالا

وعرِّجْ بيومينَ أمّ القرى ∴ ونَمْ فعسى أن تراها خيالاً (٢).

وفى هذه القصيدة يقول معرضاً بالرميكية:

تخيرتها من بناتِ الهجان ∴ رُمَيْكية ما تساوى عقالا

وكانت لا تقل عنها إجادة للشعر مع سرعة البديهة «العبادية» جارية المعتضد عباد، والد المعتمد، أهداها إليه مجاهد العامرى من «دانية»، وكانت أديبة، ظريفة، كاتبة، شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة، واقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله، وهى نائمة، فقال:

تنامُ ومُدْ نَفْهُا يسهرُ ∴ وتصبرُ عنه ولا يصْبرُ

فأجابته بديهة بقولها:

---

(١) نفح الطيب/ ٤/٢١١.

(٢) يومين: قرية بإشبيلية كانت منها أولية بنى عباد.

لـــئن دام هـــذا وهـــذا بـــه ∴ ســـيهلك وَجْـــداً ولا يَشْـــعُر

وعلى شاكلة الرميكية والعبادية «**غاية المنى**» جارية المعتصم بن صمادح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعُرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ قالت غاية المنى، فقال لها: أجيزى[1]:

سَلْ هَوى غاية المنَى

فقالت بديهة:

مَنْ كَسَى جسمى الضَّنَا

وأرانـــــى مـــــدَّلها ∴ ســـــيقول الهـــــوى أنـــــا

وأعجب بها، واستبقاها بين جواريه، وربما كانت أم ابنته أم الكرم.

ومن أوائل الشاعرات فى الأندلس **حسانة التميمية**، مولودة فى إلبيرة وليست وافدة على الأندلس، فضلاً عن كونها من الحرائر وليست من القيان، وملكة الشعر عندها موروثة عن أبيها أبى الحسين الشاعر أحد من مدحوا الحكم الربضى.

ولما مات أبوها كتبت إلى الحكم، وهى إذ ذاك بكر لم تتزوج:

إنَّـــى إليـــك أبـــا العاصـــى موّجعـــة ∴ أبـــا الحســـين ســـقته الواكـــف الـــدِّيمُ

قـــد كنـــتُ أرتـــعُ فـــى نُعْمـــاه عاكفـــةً ∴ فـــاليومَ آوى إلى نُعمـــاك يـــا حكـــم

أنـــت الإمـــام الـــذى انقـــاد الأنـــام لـــه ∴ وملكتـــه مقاليـــد النهـــى الأمـــم

لا شـــىء أخشـــى إذا مـــا كنـــت لى كنفـــاً ∴ آوى إليـــه ولا يعرونـــى العَـــدَمُ

لازلـــتَ بـــالعزةِ القعســـاءِ مرتـــدياً ∴ حتـــى تـــذلَّ إليـــك العُـــربُ والعَجَـــمُ

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنه، وكان يطرب للشعر الحسن، وأمر لها بإجراء مرتب، وكتب إلى عامله على إلبيرة فجهزها بجهاز حسن.

---

(١) نفح الطيب /٤/٢٨٦.

فلما مات الحكم بن هشام – وكان ذلك فى سنة ٢٠٦هـ - أوقع عامل إلبيرة جابر بن لبيد، وكان الحكم قد وقع لها بخط يده تحرير أملاكها، وحملها فى ذلك على البر والإكرام، فتوسلت إلى جابر بخط الحكم، فلم يفدها، فدخلت إلى عبد الرحمن وارث ملكه فأقامت بفنائه، وتلطفت مع بعض نسائه، حتى أوصلتها إليه، وهو فى حال طرب وسرور، فانتسبت إليه، فعرفها وعرف أباها، ثم أنشدته:

إلى ذى النَّدى والمجد سارت ركائبى ∴ على شَحَطٍ تَصْلَى بنار الهواجر[١]

ليجبر صَدْعى إنه خير جابر ∴ ويمنعنى من ذى الظلامةِ جابرِ[٢]

فإنى وأيتامى بقبضة كفه ∴ كذى ريشٍ اضحى فى مخالب كاسرِ

جديرٌ لمثلى أن يقالَ مَرُوعَةٌ ∴ لموتِ أبى العاصى الذى كان ناصرى

سقاه الحيا لو كان حيا لما اعتدى ∴ علىّ زمانٌ باطشٌ بَطْش قادرِ[٣]

أيمحو الذى خطّته يمناه جابرٌ ∴ لقد سامَ بالأملاكِ إحدى الكبائرِ

ولما فرغت رفعت إليه خط والده، وحكت جميع أمرها، فرق لها وأخذ خط أبيه فقبله ووضعه على عينيه، وقال: تعدى ابن لبيد طوره، حين رام نقض رأى الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم، فقبلت يده، وأمر لها بجائزة [٤].

ويلاحظ أن حسانة صاغت قصيدتها بذكاء وفطنة باهرتين فقد تحركت نحو الأمير الجديد تشكو عامل بلدتها وتستنجد بمروءته وتخلق أسباباً تربطها به فقد كانت تحت رعاية أبيه وحمايته. فهل يكون موته سبباً لوقوع الظلم عليها، وتصوغ شكواها فى ضراعة لإقالة عثرتها، وتنسج قصيدتها من حبات الدموع المترقرقة ترحماً على حاميها - الذى هو والد الملك الجديد – وتدعو له بالغفران

(١) الشحط: البعد.
(٢) يجبر صدعى: ينصف ظلامتى.
(٣) الحيا: المطر يحيى موات الزرع.
(٤) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب /١٦٨/٤.

والرضوان، إنها بذكاء المرأة العربية وفطنتها تنشد أبياتها بين يدى الأمير عبد الرحمن فى نفس الإطار الفنى المشرقى [١].

وقد ظلت تعترف بفضله ورفع الظلم عنها فبعثت إليه بقصيدة منها:

ابـن الهشـامين خـيرُ النـاس مـأثرةٌ ∴ وخـيرُ مُنتجـع يومـاً لـروادِ

إن هَـزَّ يـوَم الـوغى أثنـاء صـعدته ∴ روى أنابيبهـا مـن صـرف فرصـادِ

قُـل للإمـام أيـاخَير الـورى نسـبا ∴ مقـابلاً بـين آبـاء وأجـدادِ

جـوّدت طبعـى ولم تـرضَ الظلامـة لى ∴ فهـاك فضـل ثنـاء رائـحٍ غـادِ

فـإن أقمـتُ ففـى نُعمـاك عاطفـة ∴ وإن رحلـت فقـد زودتنـى زادى

وتورد مصادر الأدب الأندلسى أخباراً كثيرة عن شاعرة «غرناطة» فى القرن الخامس الهجرى **نزهون القلاعية** وحضورها مجالس الرجال ومساجلتهم ومهاجاتهم، وكانت موصوفة بخفة الروح، والانطباع الزائد والحلاوة وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق [٢].

كما وصفها ابن سعيد بأنها شاعرة ماجنة كثيرة النوادر [٣] ومن الأخبار الدالة على مخالطتها للرجال ومناكفتها لهم أنه روى أنها كانت تقرأ يوماً على أبى بكر المخزومى الأعمى فدخل عليها أبو بكر الكتندى فقال الكتندى للمخزومى أجز:

لو كُنْتَ تُبصر من تُكلمهُ

فأفحم وأطال فكره ولكنه لم يستطع أن يحير جوابا، فقالت نزهون:

لَغَدوت أَخْرسَ من خَلاَخله

البدرُ يطلعُ من أزرَّته والغُصنُ يمرح فى غَلائلهِ

---

(١) راجع: الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه/ ١٢٥.
(٢) راجع: نفح الطيب/ ٣١/٥.
(٣) راجع: المغرب/١٢١/٢.

وهكذا كانت نزهون أسرع بديهة من الشاعر الكبير، وكانت فى إجابتها صافية الشعر مشرقته، بارعة رسمت الصورة فى رشاقة وحسن استغلال للمناسبة فخلعت على نفسها حلة من الجمال والفتنة ولم تنس أنوثتها وسحر دلالها.

وكانت نزهون من الجرأة وروح المجازفة بحيث تصطدم فى الندوات التى كانت تحضرها بكبار الشعراء من الحضور، وكانت على رقة شعرها صاحبة طبع عدوانى، ففى إحدى مجالس الوزير أبى بكر بن سعيد فى غرناطة دخل الشاعر أبو بكر المخزومى الأعمى يقوده غلام صغير، وكان المخزومى فيما يصفه لسان الدين بن الخطيب فى الإحاطة: أعمى شديد الشر معروفا بالهجاء، غير أنه حين استقر به المجلس فى ندوة الوزير «وأفعمته روائح الند والعود والأزهار، وهزت عطفه الأوتار»[1] أوحت إليه قريحته الثرة المنسابة هذه الأبيات:

دارُ السُّعيدى ذى أم دار رضوان ∴ ما تشتهى النفسُ فيها حاضرُ دانٍ

سقت أبارقها للند سُحب ندى ∴ تحدو برعد لأوتار والحان

والبرقُ من كل دنٍّ ساكبُ مطرا ∴ يحيى به ميت أفكار وأشجان

هذا النعيم الذى كنا نحدِّثه ∴ ولا سبيل له إلا بآذان

وإلى هنا والأبيات تشتمل على تحية رقيقة للمجلس وصاحبه، والشاعر فى تحيته يعلن عن عماه فى المصراع الثانى من بيته الأخير.

فقال أبو بكر بن سعيد «ولا سبيل له إلا بآذان» وفى ذلك تعريض بالشاعر لكونه أعمى، وهنا تغلب المخزومى طبيعته الحادة فيلجم الوزير قائلاً:

حتى يبعث الله ولد الزنا، كلما أنشدت هذه الأبيات قال إنها لأعمى، ويحس الوزير بالحرج فيقول فى تراجع: أما أنا فلا أنطق بحرف، فيعلق الشاعر الأعمى ولا تزال فى مزاجه بقية من حدة واحتجاج قائلا: من صمت نجا.

---

(١) الأحاطة فى أخبار غرناطة/ ١/٤٢٤/٤٢٥.

وكانت نزهون بنت القلاعى حاضرة، فقالت وتراك يا استاذ قديم النغمة، بند وغناء وطيب شراب. تتعجب من تأتيه، وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول ما كان يلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه إلا بالعيان، لكن من يجئ من حصن المدور، وينشأ بين تيوس وبقر،من أين له معرفة بمجالس النغم، فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له دعه، فقال من هذا الفاعلة؟ فقالت عجوز مقام أمك، فقال كذبت ما هذا صوت عجوز؟ إنما هذه نغمة قَحْبة محترقة تشم روائح كذا منها على فرسخ ؛ فقال له أبو بكر: ياأستاذ هذه نزهون بنت القلاعى الشاعرة الأديبة، فقال سمعت بها لا أسمعها الله خيراً، ولا آراها إلا [1].. ..، فقالت له يا شيخ سوءٍ تناقضت، وأى خير أفضل للمرأة؟ ففكر المخزومى ساعة ثم قال:

على وجه نزهون من الحسن مَسْحة ∴ وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا

قواصدُ نزهون تُدَارك غيرها ∴ ومن قَصَد البحر استقل السواقيا[2].

فأعلمت فكرها وقالت:

قل للوضيع مقالاً ∴ يتلى إلى حين يحشر

من المدوَّر أنشئت ∴ والخرا منه أعْطر

حيثُ البداوة أمْسَت ∴ فى أهلها تَتَبَخْتر

لذلك أمسيت صباً ∴ بكل شىء مدوَّر

خُلقت أعمى ولكن ∴ تهيمُ فى كل أعْور

جازيتُ شعراً بشعر ∴ فقل لعمرى من أشعَر

إن كنتُ فى الخَلق أنثى ∴ فإن شعرى مُذَكَّر

فقال لها اسمعى:

---

(١) كلمة نابية ورأينا حذفها.

(٢) بيتان استوحى معناهما من بيت لذى الرمة فى هجاء «مى» وبيت للمتنبى معرضاً بسيف الدولة ولكن فيهما تصرف بارع.

ألا قـــل لنزهونـــة مالهـــا ∴ تجـــرمـــن التيـــه أذيالهـــا

ولـــو أبصـــرت بَشـــةً شمـــرت ∴ كمـــا عـــودتنى ســـر بالهـــا

فحلف أبو بكر بن سعيد ألا يزيد أحدهما على الآخر فى هجوه كلمة؛ فقال المخزومى أكون هجاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شىء؛ فقال أنا أشترى منك عرضها فأطلب، فقال بالعَبْد الذى أرسلته فقادنى إلى منزلك، فإنه لين القد رقيق الملمس؛ فقال أبو بكر لولا أنه صغير كنت أبلغك فيه مرادك، وأهبه لك؛ ففطن لقصده، وقال أصبر عليه، حتى يكبر، ولو كان كبيراً ما آثرتنى على نفسك؛ فضحك أبو بكر وقال قد هجوت نثرا، وإن لم نَهْجُ نظما؟ فقال أيها الوزير، لا تبديل لخلق الله؟ وانفصل المخزومى بالعبد بعد ما أصلح بينه وبين نزهون.

فهذه صور شعرية توضح ما كان يجرى فى تلك المجتمعات الأدبية، ومجالس الشعر. كما أنها صورة للون من ألوان الشعر عند شاعرات الأندلس سوف يأتى الحديث عنه وهو شعر «الهجاء».

كما أنها تعطى لمحة عن جانب من جوانب المجتمع وأخلاقياته[1].

❁❁❁

ثالثا: الموسيقى والغناء:

كان للترف المفرط الذى عرفه ملوك الأندلس أثر فى ظهور الموسيقى وفن الغناء، بالإضافة إلى ما عرف عن الأندلسيين من خفة الروح والظرف والفكاهة والشغف بالغناء فى ليالى الأنس.. .. حيث يجتمع معهم فى هذه المجالس المتمهرون فى هذه الفنون فيجزلون لهم العطايا ويقلدونهم – فى بعض الأحيان – أرقى المناصب كالوزارة أو القضاء.

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة /٤٢٦/١، ٤٢٧، والمغرب /٢٢٣/١، وتاريخ الأدب العربى لعمر فروخ/٣٥٠/٥/٣٥١.

«ثم هى بلد الترف إلى أوسع ما يكون الترف.. .. وقد وجد الترف فى المشرق ولكنه لم يشع بين أفراد الشعب على نحو ما شاع فى الأندلس، إذ نجد كل شخص يعبَّ من كؤوس الخمر واللذة متهالكاً فى ذلك مسرفاً فيه إلى أبعد ما يكون الإسراف، حتى القضاة أنفسهم وبعض رجال الدين، فقد كان أبو بكر بن ذكوان – المتوفى ٤٣٥هـ، قاضى أبى حزم بن جهور صاحب قرطبة أجلَّ من اشتمل عليه عصره وقاراً ومهابة مع عدله فى قضائه وإنقاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه.. .. هكذا كان مجلسه فى النهار، حتى إذا جنّه الليل أقبل مع صحبه على القصف وتجاوز فى ذلك كل وصف»(١).

والحق أن الراصد لحياة القوم فى بلاد الأندلس بعين اليقظة يلمس هذه الحقيقة وهى أن القوم استسلموا فى مجموعهم للشهوات بعد زوال حكم الأمويين وشاعت بين بعض منهم مجالس الخمر والسماع للغناء ورقص الراقصات على دندنات الأعواد والأوتار فى كل شكل من أشكال اللهو والمجون.. ..

بل إن الدول التى قامت على أساس دينى كدول المرابطين والموحدين شاعت فيهم حياة الترف فسكنوا القصور وأكثر ولاتهم من مجالس الطرب والأنس مما أضعف عصبيتهم الدينية والخلقية.. ..

وقد وفدت فنون الموسيقى والغناء إلى الأندلس من المشرق لأنها كانت عند العباسيين فى أوج مجدها ومن أكبر وسائل السرور والتسلية لديهم.. ..

فاحتلت الموسيقى مكانة بارزة فى المجتمع الأندلسى وتولع بها كما لم يتولع بها مجتمع آخر فكانت «اللغة» المشتركة التى يفهمها كافة أفراده، ويعبرون بواسطتها عن مشاعرهم وأحلامهم، لغة يسهم الجميع دون تفريق فى الجنس أو العقيدة، فى إبداع كلماتها وألحانها، وفى ممارستها أو الاستماع إليها، لغة تقرب بين الجميع، فتضمهم فى مجالس واحدة، وتوحد أصواتهم فى الغناء، وآلاتهم فى العزف، فجاءت ألحانها مرآة تعكس الميول الموسيقية لكل الأجناس المكونة لهذا المجتمع وتشهد على مدى ما كان بينها من ترابط وتمازج وتعايش وتعاون فى ظل الحضارة العربية الإسلامية.

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة /١/٣٥٨.

مما تقدم يتبين أن الموسيقى قد حظيت بعناية كبيرة وانتشرت انتشاراً واسعاً فى الأندلس طيلة الحكم الإسلامى، وتعددت مظاهر الحفاوة والتكريم والتقدير التى أحيط بها رجالها، فعلى سبيل المثال نجد أن الخليفة الحكم الأول (٧٩٦ -٨٢٢م) يستقدم مغنين ومغنيات من المشرق مثل زرقون وعلون ومنصور، والعجفاء، وأن الخليفة عبد الرحمن الثانى (٨٢٢-٨٥٢م) يخرج بنفسه لاستقبال زرياب عند وصوله إلى قرطبة سنة ٨٢٢م، وأنه يخصص فى قصره جناحاً للمغنيات قلم وعلم وفضل؛ وكان كثير من الأمراء والأغنياء يتوفرون فى قصورهم على «ستارة الغناء» (جوق النساء) و«نوبة المغنين» (جوق الرجال)؛ ولم يفقد الموسيقيون مكانتهم الرفيعة فى المجتمع حتى خلال فترات الانقسام والفتن التى كانت تمر بها البلاد أحياناً، ففى عهد ملوك الطوائف مثلا كان كل ملك يحرص على إحاطة نفسه بعدد كبير من الموسيقيين والمغنيين، معتبراً وجودهم إلى جانب غيرهم من العلماء والأدباء والشعراء يساهم فى تقوية الإشعاع الثقافى والفنى لبلاطه، وإضفاء مظاهر البذخ والترف عليه.

ولم يكن هذا الاهتمام بالموسيقى مقصوراً على الطبقة الحاكمة وأبناء النخبة فقط، بل إن الطبقة الشعبية أيضاً كانت تشاركها ذلك؛ وكانت ممارسة الموسيقى والغناء عادة شائعة بين عامة الناس.

ورغم ندرة الوثائق المتعلقة بالموسيقى الأندلسية بسبب ضياعها أو تعرضها للإحراق بأمر من الكنيسة، خاصة بعد سقوط غرناطة؛ حيث «أمكن للمتحمسين من أتباع الكاردينال خيمينيس أن يفخروا بتمكنهم من إتلاف مليون وخمسمائة ألف مجلد».

ورغم قلة المعلومات التى تحتوى عليها الوثائق التى سلمت من هاتين الآفتين، فإنه يمكن بالاعتماد على هذه المعلومات، وعلى تلك التى يمكن العثور عليها هنا وهناك فى كتب الأدب والتاريخ، إحصاء عدد غفير من الأسماء التى لمعت فى سماء الموسيقى والغناء فى الأندلس.

وتنتمى هذه الأسماء إلى مختلف الفئات المكونة للمجتمع الأندلسى من عرب ومولدين ويهود وغيرهم ممن صهرتهم الحضارة العربية الإسلامية فى بوتقة واحدة، وكان الحنين إلى الشرق وتقديس كل ما كان مصدر منه خاصة فى

بداية الحكم الإسلامى بالأندلس، والسعى إلى الحفاظ على الهوية الموسيقية العربية فى هذا الوسط الجديد، قد حدا بالحكام إلى جلب الموسيقيين والمغنيين من الشرق، وخاصة من المدينة ومكة وبغداد، ومنهم زرقون وعلون ومنصور والعجفاء وزرياب (٧٨٩ -٨٥٢م) الذى يعد أعظم موسيقى أندلسى، والذى يرجع إليه الفضل فى إرساء قواعد الموسيقى العربية فيها هو وأبناؤه وجواريه فعفى على آثار من سبقه بتجديداته وبدعه فى الغناء والآداب العامة، وكان زرياب تلميذا لإسحاق الموصلى فأبعده حسد أستاذه له عن بغداد، فطلب حظَّ نفسه فى بلاد بعيدة وكاتب الحكم بن هشام بالقدوم عليه، فسر الحكم بذلك وأرسل لتلقيه مغنياً يهودياً كان عنده اسمه منصور، ولكن الحكم توفى قبل أن يصل زرياب، ولم يكن خليفته «عبد الرحمن» بأقل ميلاً منه إلى هذا المغنى الجديد فحثه على القدوم، وأجرى عليه راتباً شهرياً مقداره مائتا دينار، وجعل له وظيفة سنوية أخرى ورسماً فى كل عيد، وكان كلما غناه وأطربه وهبه مالاً غير الذى فرضه له، وأقطعه أيضاً من الدور والمستغلات والضياع ما يقوَّم بأربعين ألف دينار، وزاد زرياب فى أوتار عوده وتراً خامساً، واخترع له مضراباً اتخذه من قوادم النسر معتاضا به من مرهف الخشب، وجعل للغناء مراسيم، فكل مغن لابد من أن يبدأ بالنشيد أول شدوه، بأى نقر كان، ويأتى إثره بالبسيط ويختم بالمحركات والأهازيج، وهذا ما يسمى بالنوبة الغنائية وهى تعتمد على التنويع فى الألحان. وأخذ فى تعليم الغناء واختبار صلاحية الأصوات، وتلقف أبناؤه وبناته وجواريه صناعته وأشاعوها فى الأندلس، وكان ابنه عبد الله خير أبنائه صوتاً، ويتلوه عبد الرحمن أما القاسم فكان أحذقهم غناءً، وعلم جارية له تسمى «منفعة» أحسن أغانيه ثم أهداها لعبد الرحمن بن الحكم أما «حمدونة» ابنته فكانت محسنة لصناعتها، متقدمة فيها على أختها «علية» لكن عمر «علية» طال بعد أختها حمدونة ولم يبق من أهل بيتها غيرها فكانت مرجعاً لمتعلمى الغناء، وإليها يشير زيادة الله الطبنى بقوله يصف طائراً مغرداً:

أدنـــت إلىّ صـــباباتى مغـــردة ∴ أذكـى الجـوى بـين أضـلاعى ترنمهـا

كأنمـا مكثـت فـى عشـها زمنـاً ∴ عليـــة بنـــت زريـــاب تعلمهـــا

وممن خرّجهن أيضاً «مصابيح» جارية الكاتب أبى حفص عمر ابن قهليل.

وقد وجد الغناء بالأندلس قبولاً يكاد يكون شاملاً ولم يتحرج فيه قوم حتى لقد توفر عليه جماعة من أبناء الطبقة الارستقراطية.

ومن العسير أن نثبت أن رجال الدين هنالك كانوا يكرهون الغناء، أو يشددون النكير على أهله، بل لعلمهم كانوا فى هذه الناحية أقرب الناس شبهاً بفقهاء أهل المدينة ونساكها، ومن الحكايات الدالة فى هذا الباب قصة قاضى الجماعة محمد بن أبى عيسى وكان عند رجل من بنى حدير وجارية للحديرى تغنيهم هذه الأبيات:

طابت بطيب لثاتك الأقداح ∴ وزهت بحمرة خدك التفاح

وإذا الربيع تنسمت أرواحه ∴ طابت بطيب نسيمك الأرواح

وإذا الحنادس ألبست ظلماءها ∴ فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتب القاضى هذه الأبيات فى يده، وخرج للصلاة على جنازة، والأبيات مكتوبة على باطن كفه.

وكان ابن عبد ربه – وهو ذو الديانة والصيانة - ماراً ذات يوم ببعض الأحياء فسمع مصابيح تغنى، فاستماله غناؤها ووقف تحت الروشن منصتا، ثم مال إلى بعض المساجد وأخذ لوحاً لبعض الصبية وكتب عليه:

يا من يضن بصوت الطائر الغرد ∴ ما كنت أحسب هذا البخل من أحد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة ∴ أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما قرأ سيدها الأبيات، خرج إليه مسرعاً، وأدخله بيته ورحب به.

ويصف الإمام ابن حزم مجالس الغناء ويذكر الشعر الذى كان يغنّى به ويصور شدة تأثره بما يسمع [1].

(١) طوق الحمامة/ ٣١، ١١٠.

وكلفته حُفنى العامرية إحدى كرائم المظفر عبد الملك بن أبى عامر صنع أبيات تلحنها، ففعل، وذكر أن لها فيها صنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً [1].

ومهما يكن من شيء فقد شاع الغناء فى البلاد الأندلسية عامة، ولم يقتصر احتفال الناس به على مدينة دون أخرى، وإن كانت إشبيلية قد أحرزت قصب السبق فى كثرة الإقبال على اللهو وآلات الضرب والغناء.

حتى لقد قال فيها ابن رشد:

«إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية»[2].

وفى سنة ٤٠٦ هـ كان التجيبى شارح المختار من شعر بشار مريضاً بمدينة مالقة فقال يصف حاله فى تلك المدينة: « وكنت إذا جنى الليل اشتد سهرى وخفقت حولى أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية» وقد أعجب بغناء جارية كانت تغنى أبياتاً منها:

مابالُ أنْجُم هذا الليل حائرةً ∴ أضَلّت القصد أم ليست على فَلَك

عادتْ سَواريه وقفاً لا حراك لها ∴ كأنّها جُثث صرعى بمِعْترَكِ

فلما سأل عنها عرف أنها جارية بغدادية من جوارى المنصور بن أبى عامر، صارت إلى أحد الوزراء.

ويمكننا القول بأن الغناء من الناحية الفنية لم يتطور كثيراً بعد زرياب.

والحق أن الأندلس أصبحت بوتقة انصهرت فيها التيارات الغنائية المختلفة.

وكما كان العرب يرتاحون إلى التلاحين الوافدة كانت الأغانى العربية تردد فى البلاطات الأجنبية ويجد سامعوها فيها متعة روحية، فقد وهب المستعين سليمان بن الحكم لشانجة بن غرسية عدداً من الجوارى، وذكر من زار بلاط بنت

(١) طوق الحمامة / ١١٤.
(٢) المرجع نفسه .

شانجة ملك البشكنس (زوجة شانجة بن غرسية) أنها أمرت إحدى الجوارى بالغناء، فأخذت العود وغنت:

خليلي ما للريح تأتى كأنّما ∴ يخالطها عند الهبوب خلوقُ

أم الريح جاءت من بلاد أحبتى ∴ فأحسبها ريح الحبيب تسوق

وتكفى هذه الأمثلة فى تصوير ما كان للغناء من شأن كبير لا فى نشر النماذج الشعرية الشرقية وحسب بل فى تقريب الشقة بين ضروب مختلفة من الصور الأدبية، وفى رسم أسس جديدة للإتجاهات الشعرية فى الأندلس.

۞۞۞

رابعاً: الحرية:

وهب المجتمع الأندلسى المرأة حق حرية التعبير عن آهاتها الداخلية، وعن خلجاتها جراء الحب والشوق، حتى غدت سمة الحب الصادق والعاطفة الرقيقة لها حضور مميز فى كثير من قصائدهن، وما تحرر المرأة إلا صورة صادقة لمجتمع حارب التقاليد والعادات المعهودة، وأصبح اختلاط الرجال والنساء أمراً عادياً على مستوى المنتديات الأدبية، ومجالس الأنس.

إلا أن الأمر تطور لينجب لنا شعراً مكشوفاً وغزلاً يطبعه الفسق والمجون، ولعل حركة المرأة فى الأندلس قد زادت بعض الشىء عما ينبغى لها أن تكون. فقد روى شعر مكشوف لبعض الشاعرات الشهيرات، ملئ بأسباب البذاءة وألفاظ السوقة وأسماء عورات الجنسين على السواء، وكان هذا الشعر النسائى ينشد فى المجتمعات ويحفظ ويذاع، ولعل من أفحش هذا الشعر ما روى لنزهون القلاعية الغرناطية، وولادة بنت المستكفى، ومهجة بنت التيانى القرطبية.

ومما يؤسف له أنه كان من حق المرأة الأندلسية أن تعشق وأن تصرح بعشقها وأن تأخذ زمام المبادرة، وقد أورد ابن حزم حادثتين.. .. صرح باسم

المرأة فى الأولى واسم من أحبته؛ لأن حبهما انتهى بالزواج وقدر لهما أن يتوفيا فى زمن متقارب.. .. أما الثانية ففتاة من ذوى الحس والجاه والشرف والسيادة وقد أطلق ابن حزم عليها لفظ «جارية» وكنى عنها ولم يصرح باسمها لجملة أسباب من أظهرها أن بينه وبين فتاها صداقة ومودة، وأن والده من أجلاء الكتاب أى: من أصحاب السيادة والسلطان.. .. وإن يكن أمرها قد شاع واشتهر لولا أن تدورك الأمر فى النهاية.

وكان من حق المرأة أن تراسل من تحب ومع المراسلة يلزم الرسول الذى يقوم بدور الوساطة بين العاشق ومعشوقته.

كما تبودلت الهدايا على قدر متساو بين الرجل والمرأة، وكانت العينات كما هو الحال المعروف المشاهد فى عصرنا، أو خصلة من الشعر المعطر يهديها المعشوق إلى العاشق لتبقى معه تذكاراً فى أويقات لا يجتمعان فيها.

وكانت المرأة صاحبة الرأى فى زواجها، فهم يلتزمون أصول التشريع الإسلامى فى ذلك، وموقف جارية سعيد بن منذر بن سعيد معروف مشهور، وخلاصته أنه أسر إليها أن يطلق سراحها فتنعم بحريتها ويتزوجها.. .. فطاوعته على أن يتخفف من بعض لحيته فوافقها على ذلك ثم دعا ببعض وجهاء الناس ليشهدهم على حريتها وزواجها منه، فما أن أشهدهم على حريتها.. .. حتى صرخت برفض الزواج منه، فأسر أخوه الحكم بن منذر بن سعيد إلى بعض من فى المجلس يطلب زواجها منه فقبلت فتزوجها فى المجلس عينه.. .. فتعجب من بالمجلس.

وفى هذا الموقف ما يدل على مبلغ تمتع المرأة الأندلسية بحريتها فى اختيار زوجها لا فرق في هذا بين الإماء والحرائر(١).

فقد خطب عائشة بنت أحمد القرطبية الأديبة الشاعرة الحرة بعض الشعراء فلم تر أنه كفؤٌ لها، ويبدو أنه كان ملحاً فى رغبته فكتبت إليه:

أنـــا لَبْـــوةٌ لكننـــى لا أرتضـــى ∴ نفســى مُناخــا طــول دهــرى مــن أحــدْ

(١) ملامح التجديد فى النثر الأندلسى خلال القرن الخامس الهجرى د/ مصطفى محمد أحمد على السيوفى/ ط /عالم الكتب/ط الأولى ١٤٠٥هـ –١٩٨٥م/ ٥١٦، ٥١٧.

ولـــو أننـــي أختـــار ذلـــك لم أُجـــب ∴ كلبـــاً وكـــم غَلَّقـــت سمعـــي عـــن أَسَـــدْ[1].

بقى أن نقول إن المرأة الأندلسية الحرة لعبت فى الأدب الأندلسى دوراً يشبه فى بعض الوجوه دور المرأة فى الأدب الفرنسى.

ومن مظاهر حرية المرأة الأندلسية أنها كانت تلتقى الرجال فى ساحات الدرس وفى السمر الأسرى، كما كانت تخرج لزيارة المساجد والأسواق برفقة جواريها والتنزه فى الحدائق العامة، ولم تكن النساء الأندلسيات سجينات بيوتهن، بل شاركن الرجال فى عدة مجالات وتبارين معهم شعراً ونثراً، وأسهمن فى صياغة مجتمع أندلسى متميز.

ولعل أوضح الأمثلة على تحرر المرأة الأندلسية:

بروز عدد كبير منهن فى مجال الشعر. فكن شاعرات جريئات لا يكتفين بالتلميح دون التصريح ولا بالإشارة دون الإعلان عندما يتغزلن بالرجال، فمن هؤلاء الشاعرة ولادة بنت المستكفى التى جعلت من طراز ثوبها إعلاناً عن الإباحة والانطلاق حينما كتبت بالذهب على الطراز الأيمن:

أنـــــا والله أصـــــلح للمعـــــالى ∴ وأمشـــــى مشـــــيتى وأتيـــــه تيهـــــا

وكتبت على الطراز الأيسر:

وأمكـــن عاشـــقى مـــن صـــحن خـــدى ∴ وأعطـــــى قبلتـــــى مـــــن يشـــــتهيها

ومن حريتهن تأثيرهن على أزواجهن من الأمراء والخلفاء، فبنوا لهن القصور المنيفة، والمدن المسماة على أسمائهن، كالزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر على اسم حظيته وأنفق فيها أموالاً لا تحصى.

---

(١) نفح الطيب /٤/٢٩٠.

ومن ملوك الطوائف من بلغ به التأثر بزوجه وشدة تعلقه بها، أن يشتق من لقبه اسمها، كالمعتمد بن عباد الذى سمى زوجته الرميكية بـ «اعتماد» مشتقا من لقبه المعتمد، مثلما أشار إليه عندما نظم أبياتا يبدأ كل بيت منها بحرف من اسمها، يقول:

أغائبة الشخص عن ناظرى ∴ وحاضرة فى صميم الفؤاد

عليك سلام بقدر الشجو ∴ ن ودمع الشؤون وقدر السهاد

تملكت منى صعب المرام ∴ وصادفت ودى سهل القياد

مرادى لقياك فى كل حين ∴ فياليت أنى أعطى مرادى

أقيمى على العهد ما بيننا ∴ ولا تستحيلى لطول البعاد

دسست اسمك الحلو فى طيه ∴ وألفت فيه حروف اعتماد

۞۞۞

خامساً: الامتزاج الحضاري:

كان للتفاعل الإجتماعي الذى شهده المجتمع الأندلسى وامتزاج العرب بالأسبان من خلال المصاهرة، واقتناء الجوارى والأسبانيات دور كبير فى نقل بعض العادات الأوربية إلى المجتمع الأندلسى.

والمتتبع لدورة الأيام وحركة التاريخ فى بلاد الأندلس يلاحظ توالى الأجناس المختلفة فى حكمها. من الإغريق، والرومان، والقوط، والبربر، ثم جاء العرب فصادفوا البلاد وقد انطبعت فيها المزايا والخصائص المعروفة لهذه الأمم التى امتزجت بها وحكمها كل جنس منهم ردحا من الزمن تفاوت طوله وامتداده.

وكان الأثر المباشر لهذا الامتزاج الذى خالط العقول وتسرب فى الدماء نضوج العقلية الأندلسية ونشأة جيل بل أجيال متعاقبة يجرى فى عروقها الدم العربى منضماً إلى خصائص العناصر الأخرى التى عرفت لبقية السلالات حين توافدت على بلاد الأندلس. . فاتصف الجيل الناشئ بكريم الخلق وعظيم السجايا

العربية من غيرة وكرامة وصفاء قريحة، ورجاحة عقل ويضاف إلى ذلك صفات اكتسبها من الجنس الآرى كدقة الإدراك وسعة الخيال والقدرة على التمحيص.

ولقد حرص المؤرخون على أن يميزوا بين العناصر التى وفدت إلى الأندلس – من العرب وسواهم – إبان الفتح الإسلامى والعناصر الاسبانية التى اعتنقت الإسلام فيما بعد ذلك حين يقولون:

"وهذه العناصر الاسبانية المسلمة تسمى عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولدين فاسم «المسالمة» يطلق على الاسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام، واسم «المولدين» يطلق على نسلهم، أما الأسبانيون الذين احتفظوا بدينهم فيسمون بالعجم أى: الأغراب أو الأجانب»[١].

ولقد توثقت الصلات وأحكمت الروابط بفعل حركة المجتمع إثر الاختلاط والتزاوج بين العرب والمولدين، وندر أن يكون بين العرب من لا يجرى فى عروقه دم إسباني أو يحمله رحم من الاسبانيات. وقد اشتد هذا «الاختلاط زمن الخلافة الأموية ولا سيما فى المدن وعندما حل عهد ملوك الطوائف كان فى الامكان تمييز من كان أصله بربرياً ومن كان أصله عربياً، غير أن الصفة الأندلسية هى التى كانت تربط العرب بعضهم ببعض، فهم أندلسيون قبل كل شىء، ولهذا يجب ألا نتحدث إلا عن طائفة أندلسية وأخرى بربرية وثالثة صقلبية نسبة إلى الصقالبة، أما الطائفة العربية فهى بالأحرى تلك التى نسميها أندلسية[٢].

على أن هذا التباين فى تكوين المجتمع الأندلسى ما بين بربر وصقالبة وعرب.. .. وقد جرى بينهم وبين الفاتحين من الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله فى أى صقع إسلامى آخر، وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من التساهل على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عندما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد[٣].

---

(١) فى الأدب الأندلسى/ د/ جودت الركابى/ ٣٥.
(٢) راجع: فى الأدب الأندلسى /د/جودت الركابى/٣٦.
(٣) راجع: فى الأدب الأندلسى /د/جودت الركابى/٤١.

وقد كان الزواج والمصاهرة بين العرب الفاتحين والاسبانيات من عوامل نضوج العقلية الأندلسية، وفى ذلك يقول صاحب «رحلة الأندلس»:

«كثر زواج ولاة الأندلس من العرب وأمرائهم من الأسبانيات، وأول من تزوج منهم عبد العزيز بن موسى بن نصير، فقد تزوج بالسيدة «أيلونا» أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات إثر جروحه فى واقعة «شريش» التى تغلب عليه فيها طارق بن زياد.. .. وقد فشا الزواج والتسرى بالاسبانيات من القوط وغيرهم بين الأمراء والرؤساء من العرب، وكان لهذا العنصر الجميل شىء من التأثير فيهم لم تظهر نتائجه الخبيثة إلا عند ضعف الدولة.»[1] فى أخريات أيام الإسلام بالأندلس.

وقد أثر هذا التلقيح الطبعى فى طبيعة العرب خاصة البربر «فرقق من أخلاقهم وقل من حدتهم وكان ذلك سبباً للتسامح الذى أحسنوا به عشرتهم مع من بقى وسطهم من القوط وغيرهم سواء أسلموا أو بقوا على دياناتهم».

على أن دور المرأة فى الأندلس من خلال التلقيح الطبعى كان دوراً عظيماً وغاية بالغة فى الازدهار الأدبى والثقافى فقد أثرن بلطافة أخلاقهن وجمال عشرتهن، وليونة ملمسهن فى نساء العرب اللواتى ظهر منهن كثيرات فى عالم الأدب، وكان ظهورهن فى أفق هذه البلاد من الأسباب التى دلفت بالرجال إلى ميادين العرفان فى كل نوع من أنواع العلوم خصوصاً فى الأدب الذى كان لهم فيه القدح المعلى، حتى لقد كان لهم فى عواصم البلاد أندية كثيرة تجمع بين الجنسين لمذاكرة العلم والأدب، والنظم من شعر ونثر وهذا لعمرى آية الآيات، ونهاية البراهين على سبق القوم وسمو العقل وعلو الفهم فى مدنيتهم.

ولا نزال نجد البرهان على رقى الأمم فى نبوغ الجنس اللطيف فيها، فإن النساء خير موصل لحقائق الكون ودقائقه إلى أبنائهن وهم فى نعومة أظافرهم.

وقد كانت غالبية نساء الأمراء والخلفاء والولاة، وحتى أبناء الطبقة الرفيعة من الجوارى الاسبانيات مما كان له تأثير عميق على الأسرة الأندلسية.

(١) رحلة الأندلس/ محمد لبيب البتنونى/ ط/ مطبعة الكشكول بالقاهرة/ ط/ الأولى/ ١٩٢٧م/ ٢٥، ٢٦.

وكان معظم السلاطين يعتمدون فى إدارة شئون قصورهم على العنصر الصقلى والاسبانى ممن كانوا يعدون بالآلاف فى تلك القصور.

كما ترك أهالى البلاد الأصليون من الاسبان الذين عاشوا فى ظل الحكم الإسلامى تأثيرات واضحة فى خصائص المجتمع الأندلسى وفى سلوك أبنائه وسلوك المرأة الأندلسية.

ولا شك أن التحرير، وحرص الأندلسيين على تحقيق الانسجام مع ما وهبه الله للأندلس من غنى وتنوع وجمال فى الطبيعة والمخلوقات كانت من العوامل التى ساعدت على شيوع شعر المرأة الأندلسية.

الفصل الأول

شواعر الأندلس ـ أغراض الشعر وميادينه

ازدانت البيئة الأندلسية بعدد غير قليل من النساء الشاعرات واللاتى أسهمن فى إثراء الأدب الأندلسى بألوان طريفة من موضوعات الشعر، فكان إثراؤهن للشعر أمراً بيناً فى مجتمع كاد مثقفوه أن يكونوا شعراء في معظمهم !!

وقد تمتعت المرأة الأندلسية بكامل حريتها فى ظل بيئة جديدة لم ترتبط تقاليدها بأعماق وأثقال كتلك التى ارتبطت بها بيئة المشرق، ومن هنا شاركت المرأة الأندلسية الشاعرة فى كل فنون الشعر وكل أساليبه، فكانت تتغزل فى الرجل تماماً كما يتغزل فيها، كما كانت تمدح وتفخر ولكن فى ظل أنوثتها، وحتى الهجاء كان له نصيبه من شعرها.

كان عدد الشاعرات فى الأندلس من الوفرة والنضوج بحيث شكل ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسى، وكان فنهن الشعرى من ناحية القول والصوغ والجرس والإشراق والجرأة والرصانة والإطراف مما يدفع الدارس إلى ضرورة الوقوف فى ساحته بعض الوقت فاحصاً متأملاً مستبيناً ما فيه من أسباب الجدة ومظاهر الامتاع.

المدح:

يكثر ارتباط المدح بصورة الطبيعة لدى الكثرة من شعراء الأندلس و«إذا كانت محاولات مزج الطبيعة بالمديح عند المشارقة تجرى فى حذر شديد عند بعضهم، وقصد وترو عند بعضهم الآخر، فإنها عند الأندلسيين صريحة واضحة عالية الصوت شديدة الجلبة عذبة الجرس مليحة الرنين»[(١)].

فهل كان الأمر كذلك عند شاعرات الأندلس؟ ونترك نماذج الشعر لتجيب على هذا التساؤل.

فمن شاعرات الأندلس التى برز عنها غرض المدح:

مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى [(٢)].

---

(١) الأدب الأندلسى/ مصطفى الشكعة /٣٤٥.

(٢) أصلها من مدينة شلب فى جنوب البرتغال تتبع مقاطعة الغرب، لكنها أقامت واشتهرت بمدينة إشبيلية بالأندلس.

أديبة وشاعرة، جزلة مشهورة، كانت تعلم النساء وتعطيهن دروساً فى الأدب مع الالتزام بالصون والعفاف والحشمة، فقد كانت تغدو على بنات سادات إشبيلية وتعلمهن القريض، وقد تخرج من مدرستها طائفة شهيرات نساء الأندلس.

وتميزت هذه السيدة بكونها امرأة ذات ثقافة عالية، درست الشعر والأدب والبلاغة، مما مكنها من احتلال منزلة مرموقة عند أجلاء وكبراء البلد.

وتثبت الروايات أنها كانت تمدح عبيد الله بن محمد المهدى الأموى، وكان يجيزها من ماله ويساجلها شعراً وتساجله وكان من مساجلاته معها يبدى لها الكثير من الاحترام والإجلال حيث يشبهها بمريم العذراء فى ورعها، والخنساء فى شعرها.

ذكرها الحميدى فى كتابه – جذوة المقتبس[1]. وأنشد لها جوابها لما بعث المهدى إليها بدنانير، وكتب إليها:

مالى بشكر الذى أَوليت من قِبل ∴ لو أننى حُزت نطق الُلسن فى الحُلل

يا فذة الظرف في هذا ازمان ويا ∴ وحيدَة العصر فى الإخلاص والعملِ

أشبهتِ مريماً العذراء فى وَرَعٍ ∴ وفقتِ خنساء فى الأشعار والمثلِ

وردت عليهاالشاعرة بقصيدة تمدح فيها الأمير الذى بعث إليها من ماله وخلع عليها من أدبه قائلة:

مَنْ ذا يجاريك فى قول وفى عمل ∴ وقد بدرت إلى فضل ولم تسل

مالى بشكر الذى نظمت فى عنقى ∴ من اللآلى وما أوليتَ من قبلى

حَلّيتنى بحلى أصبحتُ زاهيةً ∴ بها على كل أنثى من حلى عطل

لله أخلاقك الغرُّ التى سُقيت ∴ ماء الفرات فرقتْ رقةَ الغزل

---

(١) جذوة المقتبس فى تاريخ الأندلس/ تحقيق/ إبراهيم الأبيارى ط/دار الكتب المصرية، دار الكتاب اللبنانى / ط / الثانية ١٩٦١م/٣٨٩/٢، ونفح الطيب / ٤ /٢٩١، وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس دار الكاتب العربى/أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة /١٥٨٤.

أَشبهتَ مروانَ من غارت بدائعه ∴ وأنجدتْ وغدتْ من أحسن المثلِ

من كان والده العضبَ المهند لم ∴ يَلِدْ من النسل غير البيض والأسَلِ

وهذا الشعر وإن يكن مصطنعاً لرد تحية وعرفان بجميل، فهو إن لم يكن من الحسن الجيد فما ينزل إلى الغث الردئ، وطبيعة المرأة واضحة فيه، وجميل من الشاعر أو الشاعرة أن يفصح عن ذاته فى يسر فيما ينشىء من فن.

على أن شاعرية الشاعر تبدو على سجيتها حينما يغنى لنفسه محباً أو فخوراً أو شاكيا، إن الحكم على شعره حينئذ يكون أقرب إلى الصحة وأدنى إلى العدل(١).

وكانت **عائشة بنت أحمد القرطبية**(٢) تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، وتدخل بشعرها على بعض ذوى الشأن والمكانة، فقد كانت كاتبة شاعرة نابهة فى نظم الشعر، وترتجل فى المناسبات الطارئة، دخلت يوماً على المظفر بن أبى عامر، وبين يديه ابن له، فارتجلت:

أَراك الله فيه ما تريد ∴ ولا بَرحتْ معاليهَ تزيدُ

فقد دلَّتْ مخايلُهُ على ما ∴ تُؤَمِّلُهُ وطالعُهُ السعيد

تَشَوَّقت الجياد له وهُز الحُسام هوى وأشرقت البُنُود

فسوف تراهُ بدراً فى سماء ∴ من العليا كواكبه الجنودُ

وكيف يخيبُ شِبلٌ قد نمتْهُ ∴ إلى العَلْيَا ضراغمهُ أسودُ

فأنتم آلَ عامرَ خيْر آل ∴ زكا الأبناء منكم والجدودُ

وليدُكم لدى رأيٍ كشيخٍ ∴ وشيخكم لدى حرب وليدُ

---

(١) راجع: الأدب الأندلسى/ مصطفى الشكعة /١٦٩.

(٢) قال عنها ابن حيان فى المقتبس: «.. .. لم يكن فى زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة» وكانت حسنة الخط، تكتب المصاحف، وفى كتاب المغرب: إنها من عجائب زمانها وغرائب زمانها، وأبو عبد الله الطبيب عمها ولو قيل إنها أشعر منه لجاز. وماتت عذراء لم تنكح سنة أربعمائة.

ومن الطريف أن هذا المعانى العذبة التى جاءت ارتجالاً ومن وحى الساعة على لسان الشاعرة، قد أخذها شاعر أندلسى كبير على عهد المرابطين هو أبو بكر الأبيض الذى عرف بالهجاء وأنشأ منها قصيدة صاغها صوغاً فيه مرح ودعابة وفكاهة، ولكنه جرى فيها فى حلبة عائشة فقال فى مولود:

يـا خَيْـرَ معـنٍ وأولاهـا بعارفـة ∴ لله نعمـاءُ عنهـا الـدهرُ قـد نَعَسـا

ليهنِـك الفـارسُ الميمـون طـائرهُ ∴ لله أنـتَ لقـد أذكيتُـه قَبسَـا

أَصـاخت الخيـلُ آذانـاً لصـرخته ∴ وارتـاع كـل هزبـر عنـدما عَطَسـا

تَعَلـم الـركضَ أيـام المخـاض بـه ∴ فمـا امتطـى الخيـل إلا وهـو قـد فرسـا

تَعَشَّـق الـدِّرع إذ شـدت لفائفُـه ∴ وأنكـر المهـد لمـا عـاين الفَرسَـا[1]

وكثير منهن كن يقولن الشعر ارتجالاً وخاصة المدح قالت **حفصة بنت الحاج الركونية**، شاعرة غرناطة فى القرن السادس [2]، عندما صادفت عبد المؤمن بن على فى القصر حيث كانت تعمل مؤدبة لنسائه مرتجلة بين يديه:

يـا سـيد النـاس يـا مَـنْ ∴ يُؤمِّـل النـاسُ رفـدهْ

امـنُنْ علـىَّ بطـرسٍ ∴ يكـوُن للـدهر عـدَّه

تخـط يمنـاك فيـه ∴ الحمـدُ لله وحـدهْ

وهى فى ذلك تشير إلى شعار دولة الموحدين، فقد كانت العلامة السلطانية أن يكتب السلطان بخط غليظ فى أعلى المنشور «الحمد لله وحده».

ولا شك أنها بديهة حاضرة وخاطرة محببة تلك التى تسعف الشاعرة الذكية بهذه الأبيات التى ردد محتواها ابن مرج الكحل الشاعر بعد ذلك بقرن من الزمان فى مدحه السلطان الناصر حفيد عبد المؤمن بن على فى قوله:

---

(١) الأدب لأندلسى موضوعات وفنونه/١٣٤.

(٢) شاعرة أديبة من شواعر وأديبات غرناطة، كانت ذات جمال وحسب وثراء وبديهة وسرعة خاطر، قال ابن دحية: "حفصة من أشراف غرناطة رخيمة الشعر رقيقة النظم والشعر. راجع الأحاطة فى أخبار غرناطة/ تحقيق محمد عبد الله عنان/٤٩١/١.

ولّما توالى الفتح من كل وجهةٍ ∴ ولم تَبْلُغُ الأوهام فى الوصف حدهُ

تركنا أمِيرَ المؤمنين لشكرهِ ∴ بما أودع السر الإلهى عندهُ

فلا نعمةُ إلا تُؤدى حُقُوقها ∴ علامته بالحمد لله وحده

والملاحظ الفرق الكبير فى رونق الصياغة بين الشاعرة والشاعر فعلى الرغم من أن حفصة ارتجلت أبياتها فإنها تبدو أرق وألطف من أبيات ابن مرج الكحل.

۞۞۞

الغزل:

كانت المرأة فى التراث الإبداعى الإنسانى ملهمة ومحركة للمشاعر والعواطف والرؤى، فكانت المرأة فى الشعر الغربى ملهمة لبودلير، ودى موسيه.. .. وفى الشعر العربى كانت ملهمة لعنترة، وجميل، وقيس...، والغزل من قديم يتفرع عند العرب فرعين كبيرين:

= فرعاً ماديا حسياً، يصدر فيه الشاعر عن الغريزة النوعية أحياناً، إذ مأربه منه اللذة الحسية.

= وفرعاً ثانياً عذرياً عفيفاً يتسامى فيه الشاعر عن الحس والمادة إلى النقاء والصفاء والطهر، وكأنه يحب صاحبته لمعانى الوجد والحب فى ذاتها، لا لشىء حسى وراءها، وهو الفرع الذى نمتلئ به إعجابا عند شعراء العرب، ممن أحبوا واستأثر الحب بقلوبهم وأفئدتهم، حتى كأنما أصبح ناراً فى صدورهم لا يمكن إطفاؤها، وهم يتعذبون بتلك النار وما تذيقهم من العذاب واجدين فيها متاعاً لا يفوقه متاع، متاع يرافقه دائما الحرمان والدموع والآلام.

وهذان الفرعان من الحب العذرى والمادى يكتظ بهما الشعر الأندلسى، ونشعر كأنما أصبح الناس جميعاً شعراء ينظمون فى الغزل والحب وبيان دقائقه

ومشاعره، سواء فى ذلك الرجال أو النساء، وسواء فى ذلك أمراء البيت الأموى وحكامه أو أبناء الشعب عرباً وبربراً ومسالمة ومولدين(١).

وقد ازدهر الغزل فى العصر الأندلسى ازدهاراً قل نظيره وقد ساعد على إذكاء جذوته عناصر مختلفة منها:

الجمال، الطبيعة، التحضر، التقدم العمرانى، كثرة مجالس اللهو، الشراب، الغناء، السبى الدائم، الذى أرخص اقتناء الجوارى الغلمان فى أسواق الرقيق.

واتبع الأندلسيون فى شعرهم عامة، وفى غزلهم خاصة مناهج المشرقيين، لكن جملة أمور تلفت النظر فى غزلهم منها:

- كثرة الشاعرات الأندلسيات الغزلات.
- إقبال المرأة على قرض الغزل وتغزلها بالرجل مع بعض الاختلاف بين غزلها وغزل الرجل.
- شيوع الغزل بالمذكر بشكل فاق نظيره فى المشرق.
- ظهور الموشحات وقد طرق معظمها موضوع الحب.
- شيوع الغزل بالمؤنث بشكل لم يتواجد من قبل.

ولم يكن هناك فرق بين الحرائر والجوارى اللائى يُحسن نظم الشعر، إذ كان الآباء – أمراء ووزراء وعلماء وأدباء – يعنون بتثقيف فتياتهم، وبالمثل كانت هناك عناية واسعة بتثقيف الجوارى، وكانت تستيقظ فى أثناء هذا التثقيف ملكات بعضهن الشعرية.

اشتهرت دانية **"العبادية"** جارية المعتضد عباد(٢)، والد المعتمد، أهداها إليه مجاهد العامرى، وكانت أديبة ظريفة، كاتبة، شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة.

اقترن بها المعتضد، وتصادف أن سهر ليلة لأمر شغله وكانت نائمة، فقال:

تنامُ ومُدْنفها يسهر ∴ وتصبر عنه ولا يصبر

---

(١) راجع/ تاريخ الأدب العربى/ عصر الدول والإمارات "الأندلس"د/ شوقى ضيف/ط/دار المعارف/ ط الرابعة/٢٥٦.

(٢) أميرة إشبيلية.

فأجابته بديهة بقولها:(١)

لـــئن دام هـــذا وهـــذا لـــه ∴ ســـيهلك وجـــدا ولا يشـــعر

وعلى شاكلة "العبادية" **"غاية المنى"** جارية المعتصم بن صمادح أمير المرية، وكانت قينة مغنية وتجيد نظم الشعر، وعرضت عليه، فلما مثلت بين يديه قال لها: ما اسمك؟ فقالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزى:

اسألوا غاية المنى

فقالت:

من كسا جسمى الضنى

وارانى مُوَلَّهاً سيقول الهوى أنا (٢).

أما غزلهن بالرجال، فقد وصلنا منه الضعيف والماجن ومن ذلك قول **أم الكرم** (٣) **بنت المعتصم بن صمادح**؛ حيث كانت تشهر بحبها وتصرخ طالبة خلوة بحبيبها، ولم يكن هذا الحبيب الذى أخرج الأميرة أم الكرم عما ينبغى أن تلوذ به من أناة وكتمان واحتشام سوى فتى من فتيان قصر أبيها عرف "بالسمار". تقول:

يـــا معشـــر النـــاس ألا فـــاعجبوا ∴ ممـــا جنتـــهُ لوعـــة الُحـــبِّ

لـــولاهُ لم ينـــزلْ ببـــدر الـــدجى ∴ مـــن أفقـــه العلـــوى للتُّـــرب

حســـبى بمـــن أهـــواه لـــو أنَّـــه ∴ فـــارقنى تابعـــه قلبـــى

إنها تنادى على الناس تطلب إليهم أن يعجبوا معها على ما سببه الحب من لوعة لها وتتغزل فى فتاها بمعان وصيغ هى أكثر ما وصل إلى السمع فى مجال هذا البحث حتى الآن من صراحة فى إعلان العشق مطرحة كل معنى من معانى الكبرياء التى هى من مستلزمات طبيعة المرأة.

---

(١) نفح الطيب /٤/٢٨٣.
(٢) المرجع السابق/ ٤/٢٨٦.
(٣) بنت ملك المرية.

إن أم الكرم شاعرة رقيقة بارعة الغزل حسنة التعبير، ولكن جرئ من أنثى أن تقول ما قالته فى الفتى، وأكثر جرأة وأعلى صوتاً قولها [١]:

أَلا ليت شعرى هل سبيلٌ لخلوةٍ ∴ يُنَزَّهْ عنها سمعُ كل مراقبِ

ويا عجباً اشتاقُ خلوة من غدا ∴ ومثواه ما بين الَحشا والترائبِ

ومن الأبيات الجميلة التى قيلت فى العشق ما قالته الشاعرة **حفصة الركونية**[٢] حين أرادت الدخول على أبى جعفر بن سعيد[٣]، وقد ذهبت بنفسها مقتحمة، تطرق بابه فى جرأة، وتبعث إليه ببطاقة كتبت فيها شعراً يتفق مع سجيتها، كله إثارة وتشويق وتحريض[٤]:

زائرٌ قد أتى بجيد الغزال ∴ مُطلعٌ تحت جُنحهِ للهلالِ

بلحاظٍ من سحرِ بابل صيغتْ ∴ وُرضاب يفوقُ بنت الدَّوالى

يفضُح الورد ما حوى منه خدٌّ ∴ وكذا الثغر فاضحُ للآلى

ما ترى فى دُخوله بعد إذن ∴ أو تراهُ لعارضٍ فى انفصالِ؟

إنها شاعرة عاشقة جريئة فى طرق باب معشوقها، والسعى إليه، وهى مثيرة محرضة فى أبياتها تلك التى تصف فيها نفسها مبدية مفاتنها مفصلة محاسنها، وهى مع ذلك كله مهذبة متذللة فى طلب الإذن بالدخول[٥].

وتقول فى موضع آخر أكثر جرأة واندفاعاً من طبيعة المرأة المحبة، إذ ينتقل بها من مرحلة الغيرة إلى مرحلة الأثرة والأنانية، إنها تغر من كل شىء على صاحبها، من المرئى وغير المرئ، ومن المادة والمعنى، من الزمان والمكان.

---

(١) نفح الطيب:٤/١٧٠، المغرب فى حلى المغرب /٢/٢٠٣.
(٢) شاعرة أديبة مشهورة بالجمال والحسب والمال فى غرناطة فى القرن السادس .
(٣) وزير بنى عبد المؤمن، وكان كاتباً وشاعراً، أبوه القائد الأديب عبد الله بن سعيد.
(٤) نفح الطيب /٤/١٧١، وما بعدها.
(٥) راجع/ الأدب الأندلسى/٢٢٧.

أغـــار عليـــك مـــن عينـــى رقيبـــى ∴ ومنـــــك ومـــــن زمانـــــك والمكـــــان

ولـــو أنـــى وضـــعتك فـــى عيـــونى ∴ إلى يـــــوم القيامـــــة مـــا كفـــانى[1].

إن عاطفة المرأة العاشقة تتمثل فى حفصة أكثر مما تتمثل فيها طبيعة المرأة الشاعرة، بل نقول إن مظهر العشق والشعر قد اجتمعا وتصارعا وتساجلا فى نفس حفصة وانتصر مظهر العشق وتصرف العاشقين على رهافة الشعر وتفنن الشعراء.

ولم يكن هذا حال المرأة الأندلسية دوماً، فهناك من كانت تتمسك بكبريائها وإبائها، ومنهن **حفصة بنت حمدون**[2] **الحجارية** إذ تقول مظهرة شخصيتها كامرأة تبدى الإباء والدلال والتيه على من يدل عليها أو يتيه مستمسكة كل الاستمساك بكبرياء المرأة ذات الجمال.

لى حبيـــــبٌ لا ينثنـــــى بعتـــــاب ∴ وإذا مـــــا تركتُـــــهُ زاد تيهـــــا

قـــال لى: هـــل رأيـــتِ لى مـــن شـــــبيهٍ ∴ قلـــت أيضـــاً وهـــل تـــرى لى شـــبيهاً[3]

إنها معادلة طريفة فى دنيا الحب بين حبيبين تأبَّى كل منهما على الآخر فأبت حفصة أن تنزل له عن كبريائها فكانت هذه المخالصة الأولى من نوعها تصدر شعراً من قريحة شاعرة محبة.

ومما يلفت النظر تغزل بعضهن بجمال المرأة، كما كان من أمر الشاعرة **حمدة بنت زياد المؤدب** [4] بفتيات خرجن معها للوادى، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت:

---

(١) نفح الطيب/٤/١٧٦.

(٢) شاعرة من وادى الحجارة قريب من طليطلة، كانت فى المائة الرابع، لها شعر كثير.

(٣) المغرب فى حلى المغرب/٢/٣٨.

(٤) حمدة بنت زياد بن تقى العوفى، شاعرة كاتبة من شاعرات غرناطة فى عصر ملوك الطوائف، تحلت بالأدب الجم وتغزلت مع عفة وصيانة أخلاق، وعلمت النساء فى دار المنصور وذاع = =صيتها وعظمت منزلتها فلقبوها بخنساء المغرب، نشأت فى وادى آش يبعد عن غرناطة مسافة تقارب الأربعين ميلاً.

أبـــاح الـــدمع أســـرارى بـــوادى ∴ لـــه فـــى الحســـنُ آثـــارٌ بـــوادى

فمـــن نهـــرٍ يطـــوفُ بكـــل روضٍ ∴ ومـــن روضٍ يطـــوفُ بكـــل واد

ومـــن بـــين الظبـــاءِ مهـــاة إنـــس ∴ لهـــا لبـــى وقـــد ســـلبت فـــؤادى

لهـــا لحـــظٌ تُرَقـــدهُ لأمـــر ∴ وذاك الأمـــرُ يمنعنـــى رُقـــادى

إذا سَـــدَلَتْ ذوائبهـــا عليهـــا ∴ رأيـــت البـــدَر فـــى أفـــق الـــدآد

كـــأنَّ الصـــبح مـــات لـــه شـــقيقٌ ∴ فمـــن حـــزن تســـربل بالحـــداد

وقد كان للغزل العذرى مجال فى الشعر الأندلسى ومنه ما تمثلت به **أم الهناء بنت القاضى أبى محمد بن عبد الحق بن عطية**:

جـــاء الكتـــابُ مـــن الحبيـــب بأنـــهُ ∴ ســـيزورنى فاســـتعبرت أَجفـــانى

غلـــب الســـرور علـــىَّ حتـــى إنـــهُ ∴ مـــن عظـــم فـــرط مســـرتى أبكـــانى

يـــا عـــين صـــار الـــدمع عنـــدك عـــادةً ∴ تـــبكينَ فـــى فـــرح وفـــى أحـــزان

فاســـتقبلى بالبشـــر يـــوم لقائـــه ∴ ودعـــى الـــدموع لليلـــة الهجـــران

فهى أبيات غزلية رقيقة عفيفة بعيدة عن هجر القول وفحشه وإنما تحمل فى حواشيها حياء العذارى وبراءة الغرائر مع توشية خفيفة من زينة البديع اللفظية.

۞۞۞

شعر الشكوى:

راجع أعلام النساء عمر رضا كحالة /ط/ مؤسسة الرسالة، ٢٩٢/١، ٢٩٣/ معجم الأدباء، ياقوت الحموى، ط دار الغرب الإسلامى ، ١٢١١/٣، الأعلام للزركلى، خير الدين الزركلى، ط دار العلم للملايين ٢٧٤/٢.

يبدو أن شعر الشكوى فى شعر الأندلسيات كان مزيجاً من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون. كما كان متعدد الموضوعات فمن شكوى الدهر إلى شكوى الفراق، ثم شكوى العاملين على البلاد والشكوى من العبيد.... الخ.

فقد شكت **مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى** زمانها ويروى مؤرخو الأدب أنها عمرت طويلاً، وبلغت سبعاً وسبعين سنة فيما تروى هى عن نفسها، واصطدمت بهموم الكبر وأرق الشيخوخة، وذبول الشيب وافتقاد العافية، فشكت زمانها، والشكوى الصادقة لون من ألوان غناء النفس، فماذا قالت مريم؟ قالت:(١)

وما تَرْتَجى من بنت سبعين حَجة ∴ وسبع كنسج العنكبوت المهلهل

تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا ∴ وتمشى بها مشى الأسير المُكبَّلِ

لقد بلغت الذروة فى التعبير عن آلام الشيخوخة وهمومها تعبيراً لم يستطع كثير من الشعراء الرجال المعمرين أن يصلوا إلى مقامه دقة تصوير وبراعة تعبير.

ومن الشاعرات اللائي تحدثن عن شكوى الفراق **الغسانية**(٢) **البجانية** وقد مزجت بينه وبين الغزل، وأبياتها الجامعة بين الغزل وشكوى الفراق تجرى بها فى مسارب الحكمة متأرجحة بين الجزع والتصبر تقول:

أتجزعُ أن قالوا سترحل أَظعانُ ∴ وكيف تُطيق الصبر وَيْحك إذ بانوا

فما بعد إلا الموتُ عند رحيلهم ∴ وإلا فصبرٌ مثلُ صبر وأحزانُ

عهدتُهم والعيشُ فى ظل وصلهم ∴ أنيقٌ وروضُ الوصل أخضر فينانُ

فيا ليت شعرى والفراق يكون هل ∴ يكونون من بعد الفراق كما كانوا؟

ليالى سعدٍ لا يخافُ على الهوى ∴ عتابٌ ولا يخشى على الوصل هجرانُ

---

(١) راجع: نفح الطيب ٢٩١/٤، وجذوةالمقتبس فى تاريخ الأندلس للحميدى، تحقيق إبراهيم الأبيارى، ط دار الكتب المصرية ودار الكتب اللبنانى، ط الثالثة ١٩٦١م، وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس /ط/ دار الكاتب العربى.

(٢) وهو اسمها وليس لقبها، عاشت فى منطقة بجانة من أقاليم المرية، وقد ذكر المقرى عن طريق الخطأ أنها عاشت فى القرن الرابع، والواقع أنها عاشت فى القرن الخامس حسبما ذكر ابن سعيد.

والملاحظ فى غزلها المقرون بشكوى الفراق ضمير الجمع خشية الإفصاح عن مكنون نفسها مجاهرة وهذا على العكس والنقيض من الشاعرات الأخريات.

ويرجع البعض هذا إلى إقامتها بإقليم أشبه بقرية كبيرة، وكان لابد أن تتمسك بعادات القرية وتقاليدها من الالتزام بالحياء والعفة، على النقيض من الشاعرات اللآتى يعشن فى المدينة فهن أكثر تحرراً وأكثر إفصاحاً عن مشاعرهن، حتى إن بعض الشاعرات هى التى كانت تبادر بالغزل بالمذكر، وهى التى تبادر بإعلان الحب وما يدور فى خاطرها. كما سبق الحديث فى غرض الغزل.

وشعر الغسانية على قلة عدد أبياته تلحظ فيه الكبرياء والحب والتصبر واللوعة والشكوى من الفراق والجزع والخوف على المحب.

ونلحظ أيضاً على شعرها التمكن والفحولة والقوة، ولولا المسحة الأندلسية الرقيقة فى البيتين الثالث والرابع لكانت المعاني مشرقية محافظة[١].

ومن شواعر الأندلس التى ربطت بين شكوى الفراق والغزل **حفصة بنت حمدون** إذ تقول[٢]:

يا وحشتى لأحبتى يا وحشةً متماديهْ
يا ليلةً ودعتهم يا ليلةً هى ماهيهْ

وقد ربطت الشاعرة ولادة بين الصبابة والشكوى على طريقة عدد من شاعرات الأندلس أعطين لأنفسهن الحرية الكاملة فى التغزل بالرجل تغزل الرجل بالمرأة.

تقول ولادة شاكية فراق صاحبها ابن زيدون وقد غاب عنها بعض الوقت:

ألاهل لنا من بعد هذا التفرق ∴ سبيلٌ فيشكو كل صبٍّ بما لقى

---

(١) راجع: الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه/١٤٤.

(٢) نفح الطيب ٤/٢٨٥، ٢٨٦.

وقد كنتُ أوقات التزاور فى الشتا ∴ أبيت على جمر من الشوق محرقِ

فكيف وقد أمسيتُ فى حال قطعةٍ ∴ لقد عجل المقدورُ ما كنت أتقى

تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ∴ ولا الصبر من رق التشوق مُعتقى

سقى اللهُ أرضا قد غدت لك منزلاً ∴ بكل سكوبٍ هاطل الوبل مُغدق

كشفت لنا أشعار المرأة الأندلسية عن تمايز طبقى واضح فى مجتمع المرأة الأندلسية، فبينما نجد بعض النساء يقصدن قصور الأمراء والسلاطين للتكسب بشعرهن بسبب الحاجة والفقر، نجد فى الوقت نفسه بعض الشاعرات يعشن عيشة مترفة مثل ولادة بنت المستكفى، وحفصة بنت حمدون الحجارية التى تقول متضجرة من عبيدها [1]:

يا رب إنّى من عبيدى على ∴ جمر الغضا ما فيهم من نجيبْ

إمّا جهولٌ أبله متعبٌ ∴ أو فطنٌ من كيده لا يجيب [2]

فهى تشكو من سلوكهم، والبيتان على بساطتهما لا يخلوان من صنعة بديعية: طباق وجناس.

ومن أشهر شعر الشكوى الأندلسى ما قالته الشاعرة **حسانة التميمية** حين أوقع عامل إلبيرة [3] عليها بعض الحيف فشكته إلى وارث ملك الحكم بن هشام عبد الرحمن بن الحكم، «الأوسط» وألقت بين يديه أبياتاً جمعت بين المديح والاستنجاد فرق لها وأجازها وعزل الوالى الذى أوقع الغبن عليها، وظلت بعد ذلك تبعث إليه بالمدائح.

ويلاحظ على قصيدتها فى مدح الحكم أنها متسمة بعمق الشكوى التى تمس شغاف القلب خاصة تلك التى تصدر عن امرأة كسيرة الجناح حديثه فقد العائل وهى بعد ذلك قد غلَّفت شكواها بغلالة رقيقة من نسيج المديح فى قولها:

---

(١) نفح الطيب ٢٨٥/٤.

(٢) وفى المغرب فى حلى المغرب: لا أخيب. ٣٨/٢.

(٣) جابر بن لبيد.

إنـــى إليـــك أبـــا العاصـــى موجعـــة ∴ أبـــا الحســـين ســـقته الواكـــف الـــديم (١)

قـــد كنـــت أرتـــع فـــى نعمـــاه عاكفـــة ∴ فـــاليومَ آوى إلى نعمـــاك يـــا حكـــم

أنـــت الإمـــام الـــذى انقـــاد الأنـــام لـــه ∴ وملكتـــهُ مقاليـــد النهـــى والأمـــم

لاشـــىء أخشـــى إذا ماكنـــت لى كنفـــا ∴ آوى إليـــه ولا يعـــرو لى العـــدم (٢)

لازلـــت بـــالعزة القعســـاء مرتـــديا ∴ حتـــى تـــذل إليـــك العـــرب والعجـــم (٣).

إن حسانة محسنة ولا شك فى عرض شكايتها وفى غزو مقام العدالة من الحكم فقد جعلت منه مأوى لها وعائلاً بعد أن فقدت الراعى والعائل.

إن فـى بيتهـا الثـانى مسحة مـن قـول الحطيئـة حين غـزا قلـب عمـر ابـن الخطاب فى مصراعه المشهور:

فاغفر عليك سلام الله يا عمر

وفـى بيتهـا الثالـث سمة شـعر أمويـة مشرقية حركـت فـى قلبـه حنينـا إلـى مواطن المجد فى حلقات أجداده فى رحـاب الملك المروانـى فـى المشرق، لا شك أنها ذكرته بقول جرير فى عم جده سليمان بن عبد الملك:

الله أعطاكم من علمه بـكم ∴ حُكماً وما بعد حُكْم الله تعقيبُ
أنت الخليفةُ للرحمنِ يعرفه ∴ أهلُ الزبور وفى التوارة مكتوبُ

ولا شك أيضاً أنها ذكرته بقول نفس الشاعر فى جده الأكبر عبد الملك بن مروان:

أنـــت الأمـــينُ أمـــينُ الله لا ســـرفٌ ∴ فيمـــا وليـــتَ ولا هيابـــةٌ ورعٌ
أنـــت المبـــاركُ يهـــدى الله شـــيعتهُ ∴ إذا تفرقـــت الأهـــواءُ والشـــيعُ

---

(١) موجعة أبا الحسين بصيغة اسم الفاعل أى ناعية إليك أبا الحسين وهو أبوها.
(٢) العدم: الفقر.
(٣) العزة القعساء أى: العزة الثابتة الراكزة.

فكـلُّ أمـر علـى يمـن أمـرت بـه ∴ فينـا مطـاع ومهمـا قُلـت يتبـع

يـا آل مـروان إن الله فضـلكم ∴ فضـلا عظيمـا علـى مـن دينـه البـدع

لقد كانت حسانة من الفطنة بحيث صاغت قصيدتها على نفس بحر هذه الروائع التى قيلت فى أجداده ذوى الملك العظيم فحركت فى نفسه نخوة المروانية وعزة الملك حين طرقت هذه المعانى التى كان لا شك يحفظ نصوصها حفظها إياها فى قولها المماثل لقول سابقيها:

أنت الإمام الذى انقاد الأنام له وملَّكته مقاليد النُّهى الأممُ

ثم استطردت فى ذكاء حين اتخذت منه أبا وكنفاً وحمى تأوى إليه فى قولها:

لا شىء أخشى إذا ماكنت لى كَنَفا آوى إليه ولا يعرو لى العدم

ثم تمضى فى دعاء لا يدعى به إلا للملوك بقولها:

لا زلت بالعزة القعساء مرتديا ∴ حتى تذل إليك العُرب والعَجم

القصيدة إذن أموية فى صوغها ونهجها وأسلوبها وهى بعد ذلك ليس فيها من «الأندلسية» شىء؛ لأن الوقت كان ما زال باكراً، وكان الشعر صورة لقرينه فى المشرق وامتداداً له معنى وموضوعاً وأسلوباً.

ويموت أبو العاصى الحكم، ويقع على حسانة من حيف قبل الوالى الذى ربما انتهز فرصة موت الحكم فحجب عنها راتبها وضيق عليها فى حصاد جائزتها، وبذكاء وفطنة باهرتين تتحرك حسانة نحو الأمير الجديد تشكو عامل بلدتها وتستنجد بمروءته وتخلق أسباباً تربطها به فقد كانت تحت رعاية أبيه وحمايته، فهل يكون موته سبباً لوقوع الظلم عليها، وتصوغ شكواها فى ضراعة لإقالة عثرتها، وتنسج قصيدتها من حبات الدموع المترقرقة ترحماً على حاميها – الذى هو والد الملك الجديد – وتدعو له بالغفران والرضوان، إنها بذكاء المرأة العربية وفطنتها تنشد أبياتها بين يدى الأمير عبد الرحمن فى نفس الإطار الفنى

المشرقى وبغير قليل من الروح الخطابية التى تأخذ طريقها إلى القلب فى يسر وسهولة.

إلى ذى النّدى والمجد سارت ركائبى ∴ على شحط تصلى بنار الهواجر[1]

ليجبر صَدْعى إنه خير جابرٍ ∴ ويمنعنى من ذى الظلامة جابرٍ[2]

فإنى وأيتامى بقبضة كفه ∴ كذى ريش أضحى فى مخالب كاسرِ

جديرٌ لمثلى أن يقال مروعةٌ ∴ لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى

سقاه الحياء لو كان حيا لما اعتدى ∴ على زمانٌ باطشٌ بطش قادرِ[3]

أيمحو الذى خطته يمناهُ جابرٌ ∴ لقد سام بالأملاكِ إحدى الكبائرِ

ونلحظ هنا أن الشاعرة قد عمدت إلى الصنعة بعض الشىء حين جانست بين جابر العامل الذى ظلمها وبين صيغة جابر الذى يجبر ما حل بها من ظلم وهو الأمير وبين حيا وحيا.

هذا فضلاً عن الصورة التى رسمتها فى البيت الثالث بتشبيهها نفسها وأولادها بطائر برئ وقع بين براثن وحش كاسر[4].

❁❁❁

(١) الشحط: البعد.

(٢) يجبر صدعى: ينصف ظلامتى، يقال: بصيغة المبنى للمجهول من أقال العثرة، يعنى: ساعد ومد يد العون.

(٣) الحيا: المطر يحيى موات الزرع.

(٤) راجع: الأدب الأندلسى/د/ مصطفى الشكعة/١٢٥ وما بعدها.

الوصـف:

يعد الوصف من أفضل أغراض الشعر العربى، وأقربها إلى النفوس، ولا يستطيع الوصف إلا شاعر واسع الخيال لديه القدرة والاستطاعة على تصوير المحسوس ونقله إلى صور حية للسامع، وكأنه يراه أمامه، ولابد من وجود البواعث ، والمواقف التى تثير مشاعر الشاعر وتجعله يبدع فى الوصف.. .. فلذلك عرف الوصف عند الأندلسيين بكثرة البواعث الطبيعية والأحداث المتتالية فطرقوا به كل ميدان قرب من حسهم أو إدراكهم أو قام فى تصورهم، ولذا لم يكن عجيباً أن يقبل شعراء الأندلس عليه أكثر من إقبالهم على أى غرض آخر.

وقد اشتدت عنايتهم به، حتى اتسعت دائرته لكل ما وقع تحت أعينهم، وخاصة وصف المناظر الطبيعية، والمشاهد الكونية، كالرياض، والثمار، والأزهار، والطيور، والبحار، والأنهار، وأفردوا للوصف القصائد، أو حلوا صدورها به، وربطوا بين وصف الطبيعة وسائر الفنون الشعرية.

وكان وصفهم بحق شاهداً على براعتهم وتمام ذوقهم وكمال استعدادهم وعنواناً على مدنيتهم ومعياراً لحضارتهم ورسماً جليا لآثار نعيمهم.. .. (١).

ومن الشاعرات اللآتى أولعن بقول الشعر وبالوصف خاصة؛ لأنه من أجود وأمتع أغراض الشعر **حمدونة بنت زياد المؤدب**. التى عاشت فى وادى آش وهى مدينة ساحرة تعرف أيضاً بوادى الأشات فى بيت فيه علم وأدب فقد كان أبوها زياد الوادى آشي يعرف بزياد المؤدب، وقد نشَّأ ابنتيه حمدونة – التى تسمى أيضاً ربما على سبيل التمليح حمدة – وأختها زينب على الأدب والعلم فكانتا شاعرتين من شهيرات شاعرات الأندلس، إلا أن حظ زينب فى التاريخ لم يكن كحظ أختها حمدونة، ففى الوقت الذى حفلت فيه كتب الأدب بنماذج من شعر حمدونة وإشادة بإسمها حتى لقبت بخنساء المغرب وشاعرة الأندلس، كان نصيب

(١) راجع: أدبيات أندلسية/د/عبد الله حسين/ط/ مكتبة الإيمان ١٩٩٩م/٢١٠.

زينب من الشهرة لا يزيد عن ذكر اسمها مرتبطاً باسم أختها، فيقال: حمدونة بنت زياد وأختها زينب بنت زياد الوادى آشى [1].

إن حمدونة تصف واديها بأجمل ما يوصف به واد، فرسمت له صوراً وفتقت حولها معاني من أبرع ما رسم من صور وأرق ما فتق من معان، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين المشارقة مثل ابن العديم[2] يضن بها على صاحبتها وينحلها لشاعر مشرقى اسمه المنازى، ولكن هذا الانتحال لم يلبث أن وجه بالقرائن التى ردت الأبيات إلى صاحبتها ومبدعتها، تقول حمدونة فى وصف الوادى:

وقانا لفحة الرمضاء واد ∴ سقاه مضاعف الغيث العميم

حللنا دوحة فحنا علينا ∴ حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالاً ∴ ألذَّ من المُدامة للنديم

يصدُّ الشمسَ أنى واجهتنا ∴ فيحجبها ويأذنُ للنسيم

يَروُعُ حصاه حالية العذارى ∴ فتلمسُ جانب العقد النظيم

لقد رسمت حمدونة أكثر من صورة متحركة بهيجة الألوان والظلال لواديها الجميل الذى يشبه حصاه حبات اللؤلؤ فيروع العذارى الحاليات خشية أن تكون عقودهن قد انفرط نظمها فيسارعن فى ذعر إلى تلمس مكان العقود من لباتهن. هذا فضلاً عن التشبيه الرائق فى البيت الثانى، وحركة الأغصان فى البيت الثالث.

فالخضرة اليانعة، والأشجار ذات الغصون المتهدلة الحانية والمياه العذبة الرائقة والنسائم العليلة سارية بين ظلاله وأشجاره وأزهاره وأنواره، وحصاة الدرى المتألق الذى يروع منظره المليحة الحسناء، فتفزع بأناملها إلى جيدها

(١) نفح الطيب/٤/٢٨٩.

(٢) صاحب «بغية الطلب فى تاريخ حلب».

تتلمس جانب عقدها وتحسسه خشية أن تكون حباته قد انتثرت على أرض الروض النفيس.

كل هذا تفنن وإبداع فى الوصف، وقد كان الإكثار منه سمة من سمات شعراء الأندلس، لم تتخل عنه شاعراتهم أيضاً.

وفى رحاب الطبيعة تعيش حمدونة، وتمرح على ضفاف نهر واديها فتستهويها مياهه الصافية فتنضو ثيابها عن جسدها ومعها صديقاتها، وتلقى بجسدها البض إلى أحضان الماء آمنة على نفسها كل الأمان، فهى ابنة الوادى وعاشقته، ثم لا تلبث حمدونة أن تغنى للوادى الوارف وللطبيعة الفينانة وللنهر الجارى السلسال ولنفسها الصافية ولجمال الأنوثة والصبا ممثلا فى قوامها الميادالمتحرك سابحاً تحت الماء ولفتنة صاحباتها يتلاعبن سعيدات، واللحظ والذوائب والوجه الصبيح فوق صفحة النهر، وترسم حمدونة صوراً وتخلق تشبيهات وتعقد مقارنة بين بياض الوجه وسواد الذوائب.

وتقدم لنا هذه الأبيات المتقنة صناعة البارعة صياغة فتقول: [1]

أبـــاح الـــدمع أســـرار بـــوادى ∴ لـــه للحســـن آثـــار بـــوادى

فمـــن نهـــر يطـــوف بكـــل روض ∴ ومـــن روض يـــرف بكـــل وادى

..... **ألخ**

فقد استهلت الأبيات بصنعة بديعة فى شكل جناس كامل واختتمت بصنعة بيانية فى نطاق تشبيه بادى جهد الصنعة فيه، لكنه بارع كل البراعة متقن كل الاتقان غير أننا نقف أمامه قليلاً من حيث مدلوله وارتباطه بأهل الأندلس، لقد عرف عن الأندلسيين أنهم يلبسون البياض فى أيام الحداد، وتشبيه حمدونة هنا يفيد أن الحداد يلبس السواد، فالصبح الأبيض هو الوجه نكب فى شقيق فتسربل بالحداد وهو الذوائب السوداء[2].

(١) سبق ذكر الأبيات.

(٢) راجع: تاريخ الأدب العربى/ مصطفى الشكعة/١٥٤.

ويلاحظ على وصف الشاعرة أن ألفاظها وعباراتها كانت واضحة سهلة تمتاز بالرقة والعذوبة وتجنب الغريب من الألفاظ، كما اهتمت بالصنعة اللفظية وانتزعت صورها وخيالها من البيئة الأندلسية الغنية بمظاهر الجمال الطبيعية وتزاحم الصور.

وإن كانت حمدونة تعيش فى وادى آش الغض الأخضر الكاسى الظليل ذى المياه والأنهر والغدران، فإن شاعرة أندلسية أخرى هي أم العلاء بنت يوسف تعيش فى وادى الحجارة، وفرق كبير بين وادى آش ووادى الحجارة.

وإذا كان بوادى حمدونة أدواح وأمواه وخضرة وأزاهير، فإن كل الذى عند أم العلاء فى واديها هو القصب، غير أنها من أصحاب الهمم ذوات العزائم فجعلت من القليل كثيراً، ومن البسيط جميلاً، فرسمت صورة خلابة جذابة لقصب واديها، لقد جعلته يهفو نديا فى كف الرياح فبدا كالبنود ترفرف على خفقات النسيم وقد ارتكزت قوائمها الواحد يتلو الآخر. تقول الشاعرة:

لله بستانى إذا ∴ يهفو به القصب المندى

فكأنما كف الرياح ∴ قد اسندت بنداً فبندا

والأبيات تدل على أن صاحبتها لديها القدرة على التلاعب بالألفاظ؛ تطوعها فى يسر للمعنى الذى تنشد وتجعل منها ألوانا بهيجة فى يدها تزين بها الصورة التى تريد، وتقدم هذا التشبيه البارع من خلال وصف الطبيعة فى واديها المتواضع[1].

فقد ازدهر الوصف فى الشعر الأندلسى بصفة عامة ومن الممكن أن نرجع أسباب ازدهاره إلى عدة عوامل:

أولاً: الحياة اللاهية التي عاشها شعراء وشاعرات الأندلس.

ثانياً: عناية الملوك والأمراء بالشعراء، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمالاً لكل عالم، حتى النساء أولعن بقول الشعر وبالوصف خاصة؛ لأنه كما ذكرنا من أجود وأمتع أغراض الشعر مثل حمدونة، وأم العلاء.

(١) راجع: المصدر السابق /١٧٦.

ثالثاً: حب الأندلسيين والأندلسيات لوطنهم حباً تميزوا فيه عن غيرهم، وسحر الأندلس وجمالها مما فرض عليهم وعليهن أن يصفوا هذا الجمال فى قصائد طويلة، أو قطع مفردة.

رابعاً: كثرة مجالس الأنس سواء الخاصة أو العامة حيث كانت تتخذ من الطبيعة مسرحاً لها، وكان الشعراء يقومون بمزج الوصف لمجالسهم بوصف الطبيعة التي أثارت المشاعر، وألهبت القرائح فى نفوسهم.

خامساً: أن الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها، وأكثر شعرهم فى وصف المتنزهات ومجالس أنسهم ولهوهم في أحضانها.

الهجاء:

من الأغراض التى وجدت لها ميدانا رحباً عند شاعرات الأندلس شعر الهجاء، ومنهن :

مهجة بنت التيانى القرطبية[1] وأهاجيها فى صديقتها ولادة بنت المستكفى، وكانت مهجة من أجمل نساء زمانها، وأخفهن روحاً، فعلقت بها ولادة ولزمت تأديبها، إلى أن صارت شاعرة، وما لبثت علاقة مهجة بولادة أن ساءت فقالت فيها هجاءاً فاحشاً، وزعمت أنها ولدت وليس لها بعل، فقالت [2]:

ولادةٌ قد صرت ولادةً ∴ من دون بعلٍ، فُضِحَ الكاتمُ!

حكت لنا مريم لكنه ∴ نخلة هذى .... قائم

قال بعض الأكابر:

لو سمع ابن الرومى هذا لأقر لها بالتقديم؛ حيث إن له معنى مماثل.

فهى لم تتورع عن النيل من ولادة مستغلة طبيعة الاسم، فمعنى لفظ ولادة المرأة الكثيرة الإنجاب، ولكن الأميرة ولادة لم تتزوج فى حياتها وماتت بعد الثمانين من عمرها عذراء.

ومن شاعرات الهجاء المشهورات فى الشعر الأندلسى نزهون الغرناطية. وقد استفزت بالهجاء، مما أثار قريحتها بهجاء مضاد أبشع مما قيل فيها.. ..

والمرأة لا تنسى الإساءة أفلا تردها إذن؟

فقد هجا الأعمى المخزومى نزهون الغرناطية وتعرض لها بقوله:

ألا قل لنزهونة مالها ∴ تجرمن التيه أذيالها

---

(١) يذكر ابن سعيد عن صاحب المسهب أن أبوها كان بائعا للتين؛ ولذلك عرفت باسم مهجة بنت التيانى نسبة إلى ابيها التيان أى: بائع التين.

(٢) المغرب فى حلى المغرب ١٤٣/١، نفح الطيب ٢٩٣/٤.

ولـــو أبصـــرت فيشـــة شمـــرت ∴ كمـــا عـــودتنى ســـربالها

فأعملت فكرها وقالت:

قـــل للوضـــيع مقـــالاً ∴ يتلـــى إلى حـــين يحشـــر

مـــن المـــدور أنشـــئت ∴ والخـــرا منـــه أعطـــر

حيـــث البـــداوة أمســـت ∴ فـــى جهلـــها تتـــبختر

لـــذاك أمســـيت تهـــوى ∴ حلـــول كـــل مـــدور

خلقـــت أعمـــى ولكـــن ∴ تهـــيم فـــى كـــل أعـــور

جاوبـــت هجـــوا بهجـــو ∴ فقـــل لُعنـــت مـــن اشـــعر

إن كنـــتُ فـــى الخلـــق أنثـــى ∴ فـــإن شـــعرى مـــذكر

ويذكر صاحب نفح الطيب أبياتاً أخرى رواها ابن سعيد عن الحجارى فى «المسهب» قالتها نزهون رداً على بيتى المخزومى، وهى فى جملتها على ما بها من سمات الهجاء ليست بذيئة، وفيها تقول نزهون:

إن كان ما قلت حقاً ∴ من بعض عهدٍ كريم

فصار ذكرى ذميماً ∴ يُعزى إلى كـل لُومِ

وصـرت أقـبح شيءٍ ∴ من صورة المخزومى[1]

ومـن شـاعرات الأنـدلس التـى نظمـت شـعراً فـى الهجـاء ولادة بنـت المستكفى، فقد كانت هجاءة مريرة الهجاء، ربما فاقت بعض الهجائين من الرجال فضلا عن النساء، وإن كانت نزهون القلاعية قد عرفها الكثيرون من المؤرخين بأنها هجاءة، وأصبح الهجاء صفة من صفاتها، إلا أن ولادة لم تجر صفة الهجاء مرتبطة باسمها أو بشعرها، ومع ذلك فهى أهجى من نزهون.

(١) سبق ذكر ما حدث بين نزهون الغرناطية والأعمى المخزومى من هجاء بالتفصيل عند الحديث عن مجالس الشعر.

والسؤال الآن: إذا قالت ولادة شعراً فى الهجاء فمن تهجو[١]؟

إنها تهجو الرجل الذى قال فيها من السحر – لا الشعر – فأخلب ألباب المتأدبين لمئات السنين، والذى بسببها عادى الأقوياء من حكام مدينته الحبيبة قرطبة، من أمثال الوزير ابن عبدوس، وبنى جهور الأقوياء، فسجن وهرب وعاش غريباً صداحاً طول سنى غربته حتى لقى ربه، إنها أنشأت هجاءها فى ابن زيدون، وما قالته فى الهجاء لا يزيد كل مرة عن بيتين، ولكنهما مثل لسعة السوط بل ضربة السيف ومن نماذج هجائها أنها لقبت ابن زيدون بالمسدس ثم قالت فيه[٢]:

ولُقِّبــت المســدسَ وهــو نعــتٌ ∴ تُفَارقــك الحيــاةُ ولا يفــارقْ

فلُــوطى ومــأبون وزانٍ ∴ وديــوثٌ وقرنــان وســارقْ

وهو أهون ما قالت من هجاء:

وهل هناك أفحش من هذا؟ بل إن لها فيه وفى غيره هجاء بلغ من الفحش درجة لا نكاد نصدق معها أن هذا الشعر لرجل سوقى لا أميرة أنثى.

وقالت فيه [٣]:

إن ابن زيدون على فضله يغتابنى ظلما ولا ذنب لى

يلحظنى شزراً إذا جئته كأننى جئت لأخصى على

وقالت فيه أيضاً[٤]:

إن ابن زيدون على فضله يعشق قضبان السراويل

لو أبصر .... على نخلة صار من الطير الأبابيل

---

(١) راجع/ الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ١٨٦.

(٢) نفح الطيب ٢٠٥/٤، وما بعدها.

(٣) نفح الطيب ٢٠٦/٤.

(٤) نفح الطيب ٢٠٦/٤.

ولكن فى نفس الوقت لا نكاد نرى هجاء لابن زيدون فيها بل ظل يهيم بها وينشد فيها أرق الشعر وأعذبه سواء أكان فى ذلك حراً طليقاً أو مغضوبا عليه سجيناً أو هارباً متخفياً أو منفياً مغترباً.

كذلك فقد اقذعت الهجاء المرير لرجل يدعى «الأصبحى» ومزقت عرضه وعرض ابنه تمزيقاً لا ينفع له رقع فقالت [1]:

يـــا أصـــبحى اهنـــأ فكـــم نعمـــة ∴ جاءتـــك مـــن ذى العـــرش ربِّ المـــننْ

قـــد نلـــت باسْـــتِ ابنـــك مـــا لم ينـــلْ ∴ بفـــــرج بـــــوران أوبهـــــا الحســـــنْ

۞۞۞

(١) نفح الطيب ٤/٢٠٦.

الفصل الثانى

شواعر الأندلس ـ قصص الغرام المشبوب

قبل أن أستعرض بعض قصص الغرام الذائعة التي كان أحد طرفيها واحدة من شواعر الأنلس الذائعة الصيت والصوت ـ أود أن أشير إلى بعض أخبار الحب والأحباب، وما كان من أمر القوم فى الغرام والهيام، وخير من نقف عنده أحد فلاسفتهم، علنا نصل من خلال منهجه إلى ما يعين فى فهم نتاجهم، وبيان سرعة لوعتهم بهذا اللون، وغاية استجابة نفوسهم للواعج الهوى والغرام.

فقد تحدث ابن حزم عن أخبار المحبين فى الأندلس سواء أكانوا خلفاء أو أمراء، أو وزراء، أو علماء، أو شخصيات معروفة أخرى، وآثر ابن حزم أن لا يسمى أبطال قصصه مخافة أن يفضح بعض المحبين وقد فرق ابن حزم فى كتابه بين صنفين من المحبين:

١ـ الخلفاء والرؤساء.

٢ـ العامة

وقد بث ابن حزم بعض آرائه فى العشق، نذكر منها:

«من حميد الغرائز وكريم الشيم، وفاضل الأخلاق فى الحب وغيره الوفاء وأنه من أقوى الدلائل، وأوضح البراهين على طيب الأصل وشرف العنصر»[١].

«ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية،وسعد طالع، بل هو الحياة المجددة، والعيش السنيّ والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة»[٢].

كما تناول فى كتابه «طوق الحمامة» خفايا النفوس، وسلوك العشاق، ورد الظواهر النفسية إلى بواعثها.

وقد كان تأثير النساء فى مضمار الأدب الأندلسي كبيراً من خلال مجالين:

الأول: هو تأثر المرأة نفسها بالحركة الأدبية التى عمت الأندلس، ولعل الطبيعة الأندلسية الساحرة والحرية ومجالس الشعر وحركة الغناء وغيرها من العوامل هى التى ألهمت المرأة الأندلسية وأجرت على لسانها الشعر

(١) طوق الحمامة/ لابن حزم الأندلسى/ ط دار ابن خلدون/١٣٣.
(٢) المرجع نفسه/١٠١.

الرقيق، فضلاً عن امتلاكها اليد الطولى فى البلاغة التى تعد من المقومات الأساسية للنبوغ فى هذا المجال.

والثانى: هو قيام المرأة فى الأندلس بدور المؤثر فى الأدب لما لها من جمال وفتنة، إذ حركت نفسية الأديب ومشاعره فى التغزل بها. والشعر الأندلسى مليئ بشعراء وشواعر الأندلس ممن ربط الحب بين قلوبهم وجاهرن بعشقهن وغزلهن، من غير أن يخشين فى ذلك لومة لائم، وقد ذاع من ذلك قصص كثيرة وشعر كثير، فقد أحبت ولادة بنت المستكفى الشاعر المشهور ابن زيدون وأحبها. وذكرت المصادر أنها كانت البادئة فى طلب اللقاء به.. ! ومن الشاعرات اللاتى جاهرن بالغزل بمحبيهن، الشاعرة حفصة الركونية، التى كانت على علاقة عشق مع الشاعر أبى جعفر بن سعيد، فقد تناقلت المصادر الأدبية كثيراً من شعرها الغزلي الرقيق فيه.

ولادة بنت المستكفى وابن زيدون

تعتبر شخصية الأميرة الأموية، والشاعرة القرطبية ولادة بنت المستكفى بالله إحدى أظهر شخصيات التاريخ النسوى الأدبى فى الأندلس وأشهرها.

فهى الشخصية التى قد اهتم لها، وهام بها جملة من أهل الفنون، فكتب عنها الأدباء، والشعراء، والمستشرقون وجنح بالخيال عنها المتأدبون.

والطريف أن عدداً من علماء النفس قد شاركوا من سبق ذكرهم: فى تحليل شخصيتها، وفهم نفسيتها، ومعرفة دخائلها! يقول عنها ابن بسام:

«وكانت من نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى الأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب»(١).

ولعل سبب هذا الصيت الأدبى، والتوثيق التاريخى إنما يرجع لعوامل أدبية وأخرى موضوعية قد جعلت من سيرة هذه الفتاة أسطورة فى دنيا الجمال والشهرة والاستحسان. ومن هذه الأسباب:

أولاً: أنها سليلة بيت ملكي عريق : فأبوها هو الخليفة المستكفى بالله، وأرومتها هم بنو أمية الكرام الذين دان لهم طرفا الدنيا شرقاً وغرباً.

ثانياً: ما اختصها الله به – كما روى من ترجم لها – من صفات خلقية وشكلية ومواهبية فقد امتازت بالحسن والجمال والقبول والجاذبية، وما تمتعت به من ذوق في الأدب والحديث، وحلاوة اللغة والمنطق وبديهة الشعر والحاضرة، وخفة الروح والمفاكهة ومن ثم مخالطتها بكل هذه المزايا الفريدة للرجال الممتازين شعراً أو وجاهة.

قال عنها ابن سعيد فى المغرب: بعد ذكره أنها بالغرب كعُلَية «أخت الرشيد» بالشرق: إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق، وأما الأدب

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة/ لابن بسام/ تحقيق لطفى عبد البديع/ ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٧٥م، القسم الأول/ المجلد الأول/٣٧٩.

والشعر والنادر وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها، وكان لها صنعة فى الغناء وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها من مثل هذا.. .. "[1].

ثالثاً: علائقها الوجدانية بعلية أهل الأدب أو السياسة ومجالستهم مما قد عد سابقة أخلاقية، وفريدة اجتماعية فى تاريخ المحافظة الإسلامية وسمتها وقد كان من أبرز هؤلاء الغاشين لمجلس ولادة الوزير الشاعر الذي قد خلدها بغزليات ذائعة الصيت «ابن زيدون» والوزير الوجيه الرفيع ابن عبدوس وغيرهم.

رابعاً: البيئة الزمانية والمكانية التى قد احتضنت هذه الغادة وقصتها الرومانسية؛ إذ أن اسم الأندلس وحدائق قرطبة وجنائن الزهراء مخلوطاً هذا بتاريخ المسلمين الجميل فى تلكم البلاد، كله يحمل ويرسل معه في النفس وفى الخاطر بهجة عند المتأدبة ونشوة لدى المتذوقة، فتصطنع منه عبق التاريخ، ونسائم الربيع، وشذا الحب، ودنيا الخيال الشهي، ويكفى من أرض الأندلس، أسماء مدنها، هياجاً وطرباً، ومتعة وتراقصاً. ولهذه الأمور مجتمعة فإن اسم هذه الأميرة الأندلسية قد صار نسباً قريناً بكل اسم قد احتك بها أو توصل سببه إلى سببها؛ فقيل عن والدها «والد الشاعرة ولادة» وقيل عن الوزير الشاعر ابن زيدون «صاحب ولادة»، ودخل ابن عبدوس بسبب الاثنين معاً إلى التاريخ، بالإضافة إلى الأديبة الشاعرة والمليحة الفاتكة «مهجة القرطبية» التي يقال حين التعريف بها «صاحبة ولادة».

نسبها: تنسب ولادة إلى البيت الأموى فى الأندلس؛ فيقال: ولادة بنت الخليفة المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر لدين الله الأموى.

وعند الرجوع إلى تسلسل الإمارة الأموية فى الأندلس فإن أباها يكون هو الحاكم السادس عشر فى تعاقب الأمويين على الحكم الأندلسى أو لنقل « فى قرطبة» وقد ولى هذا الرجل ستة عشر شهراً وأياماً.

---

(١) نفح الطيب /٤/٢٠٨.

ولم يذكره أحد من المؤرخين بخير، وذلك لحقارة أمره، وتفاهة شخصه!، وقد وصل به الانحطاط والضعة أن شوهد بعد الفتنة وهو «يقصد أهل الفلاحة أوان ضمهم لغلاتهم: يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة»(١).

الواقع أن هناك مفارقة شديدة بين ولادة وأبيها، فبينما هى ذكية لبقة متعلمة حسنة المعاشرة كان أبوها بإجماع المؤرخين « لم يجلس فى الامارة مدة الفتنة – التى تولى أثناءها الملك – أسقط منه ولا أنقص إذ لم يزل مشتهراً بالشرب والبطالة، سقيم السر والعلانية أسير الشهوة، عاهر الخلوة، ضداً لقتيله عبد الرحمن المستظهر في الأدب والمعرفة»(٢).

ومن الناحية الاجتماعية الأسرية فإن ولادة قد عاشت وحيدة دون إخوة، ومغتربة بلا أسرة، فظلت طيلة عمرها تبحث عن مؤنس لوحشة كادت تفتك بها وتمتص زهرتها – خاصة بعد وفاة والدها، وانقراض كثير من أسرتها قتلاً أو عقماً. مما سيكون له شأن كبير فى فهم وتفسير تصرفاتها كما سيأتي.

أما عن صفاتها الشكلية فأدباء العربية مجمعون على أن ولادة كانت فاتنة عصر، وعصارة عطر، ولذة منظر، وجلاء قمر، وقد مر ما قاله عنها ابن بسام، وما نقله المقرى عن ابن سعيد فى المغرب بعد ذكره لولادة.

وقد حاول عدد من الأدباء المتأخرين جمع أوصاف هذه الأميرة الجميلة واستخلاصها باستخدام شعر ابن زيدون عنها واستلالها منه ومن ثم رسم وجهها بريشته يقول:

" كانت ولادة ذات قامة ممشوقة فارعة، وقَدٍ ميَّاس يتأود رفاهية، وأنفاس كما نسائم الربيع معطرة، وهى بوصف ابن زيدون لها:

يا فتيت المسك يا شمس الضحى

يا قضيب البان يا ريم الفلا

إن يكن لى أمل غـــير الرضـــا

---

(١) راجع: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة /ابن بسام.

(٢) الذخيرة /جـ١/م١/٣٨٠.

مـــنك لا بلغت ذاك الأمـــلا

وهى كذلك ذات وجه وضاء مشرق، وبشرة بيضاء ناصعة وشعر ذهبى معصفر:

أو صاغه ورقاً محضاً وتوجه من ناصع التبر إبداعاً وتحسينا

لها أسنان كما الفضة، وفى زبدة وجهها نقطة خال سوداء.

مفضض الثـــغر له نقطة من عـــنبر فى خـــــده المذهب

وهى أيضاً لدنة العود، لينة العطف، رخية اللحظ تنفث من فمها أريجاً مسكراً.

يا ألين الناس أعطافاً وألينهم لحـــظاً وأعطر أنفاساً وأردانا

يضاف إلى كل هذا الجمال السافر بأن وضاءة وجهها تسلب الألباب حين تلبس النقاب :

مـــا لبـــدر شـــف ســـناه ∴ علـــى رقيـــق الســـحاب

إلا كوجهـــــك لمـــــا ∴ أضـــاء تحـــت النقـــاب

وعلى ما بها من جمال تملكه فإنها أيضاً تصدر الجمال وترسله إذ قد جمعت ذوق الحديث، وسلسال المنطق، وإدارة الجلوس:

له خلقٌ عذبٌ وخلقٌ محسن وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر

يعلل نفسى من حديث تلذه كمثل المنى والوصل في عقب الهجر

هذه هى ولادة من خلال ريشة ابن زيدون،وألوانه البهية ورسوماته الفنية.

هذه هى ولادة نشأة وتربية وشهرة، تملأ العين والخاطر، وتستهوى أخبارها العقل واللب متابعة ودرساً.

هذه هى ولادة وما تركته فى التاريخ الأدبى الأندلسى من دوى يقرع الأسماع فى غير ما إزعاج، وإنما تصافح أخبارها وأشعارها وأسمارها الآذان فى لذة ومتعة وارتياح.

ولادة وابن زيدون:

يعد الوزير الأندلسى والأديب الشاعر القرطبى أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى القرطبى، هو دليل ولادة الذى قد مر على التاريخ بها، وجمر عنبرها الذى تضوع منه عبيرها، وقرين محبتها الذى ذاعت منه رقتها، وإن كان قيس وجميل لليلى وبثينة فى الشرق، فإن ابن زيدون هو توأم الذكر لولادة فى الغرب. وقد برع ابن زيدون فى نظم الشعر، وترتيب النثر ورسم الجمال، حتى بلغ الغاية المثلى، والطريقة الأوفى، وما أحسن ما سلكه فيه ابن بسام عند وصفه لأدبه وملكته وحلله، إذ قال عنه:

« كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بنى مخزوم، فاق الأنام طراً، ووسع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه.. ..»

وصدقاً وحقيقة؛ فإن أدب ابن زيدون قد امتاز بأناقة فريدة، ولغة حزينة، وبناء وجدانى متماسك هذا مع رهافة حس، وخيال يشف، وتصوير قد بلغ الغاية فى اللطف.

نظم الفتى قصائد كثيرة، فى فنون متعددة، وكان شعره «هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس؛ لانبجاسه من أعماق فؤاده، وانبعاثه من طبيعة بلاده»(١).

إلا أن أغزاله البهية، وأشواقه الندية صوب ولادة الأموية، قد صارت هى المذياعة ذكراً، والأشهر خبراً، فيما قد كان موضع السجود منها، وجوهرة التاج فيها نونيته الشهيرة التى افتتحها بقوله:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونـاب عن طيب لقيانا تجافينا

وتوسطها ظمآنا فى قوله:

بنتـم وبنا فما ابتلت جوانحنا ∴ شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

واختتمها بعد ذلك مسلماً ومودعاً:

---

(١) راجع: تاريخ الأدب العربى/ أحمد حسن الزيات / بدون.

عليك مـــنا سلام الله ما بقيتْ ∴ صـبابة بك نُخفيها فتُخفينا

وهى القصيدة التى قد طارت على جناح التاريخ وهبطت بأمصار الدنيا، فهيجت بعبيرها كل مشتاق، وسحت بلوعتها الدمع من الأحداق.

يتيمة فى الشعر استطاع ابن زيدون من خلالها، أن يجعل للحزن جمالاً، وللشجن مرقصاً، وللأساة مسلاة! ولذا فقد تتابع بالنسج على منوالها، والغناء بموالها، الشعراء من تالد وحادث؛ فعارضوها وخمسوها وشطروها، ثم لما تعبوا منها، قالوا: قد قصرنا عنها!

وأى عاطفة أصدق وأعمق من قول أبى الوليد بن زيدون:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شـــوقا إليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

ومن نفائس ابن زيدون التى فتنت الشعراء مرة ثانية «إنى ذكرتك بالزهراء» حيث تصور تطور علاقة ابن زيدون بولادة، كما أنها ترسم صورة لفترة زمنية مهمة فى حياة ابن زيدون حين نصبت له المكائد واتهم بالتواطؤ على حكومة قرطبة، وألقى بالشاعر الأنيق والأديب الرقيق فى السجن، إلى أن استطاع الإفلات من سجنه واختبئ بعض الوقت فى الزهراء ضاحية قرطبة الجميلة وألح عليه الشوق إلى ولادة وأضناه الحنين فكتب إليها قصيدته القافية الرقيقة المشهورة، التى أودعها ما استطاع أن يودع من أسرار فنه وروعة شاعريته بين حسن إيقاع وسحر نغم، وفيها أيضاً عمد ابن زيدون إلى وصف الأجواء التى كان يلاقى فيها ولادة، فقد أتى الزهراء والربيع قد خلع عليها بردة ونشر سوسنه وورده، وأترع جداولها، وأنطق بلابلها، ومن ثم انطلق إلى العزف على الأوتار التى ترقرق قلب ولادة، من وصف فرط قلقه، وضيق أمده إليها وطلقه، وإخبارها بأنه ما سلا عنها بخمر ولا خبأ ما فى ضلوعه من ملتهب جمر، فيقول:

إنّـــى ذكرتُـــك بـــالزهراء مشـــتاقا ∴ والأفـــق طلـــقٌ ووجـــهُ الأرضِ قـــد راقـــا

وللنســـيم اعـــتلال فـــى أصـــائله ∴ كأنـــــه رق لى فاعتـــــل إشـــــفاقاً

والـــروض عـــن مائـــه الفضـــى مبتســـم ∴ كمـــا شـــققت عـــن اللبـــات أطواقـــا

يـــوم كأيـــام لـــذات لنـــا انصـــرمت ∴ بتنـــا لهـــا حـــين نـــام الـــدهر سُـــراقا

.. .. الخ

لقد هام ابن زيدون بولادة هياماً جعله يسلك فى شعره الغزلى مسالك من المعانى المستحدثة المستجدة العذبة السهلة لم تجر على لسان شاعر آخر فى مثل حالته والملفت للنظر أن أجمل شعر ابن زيدون وأرقه هو ذلك الذى قاله فى فترات هروبه ونفيه وسجنه.

على أن لابن زيدون أبياتاً جميلة فى فترات مودتهما وصفاء ما بينهما، وكان يجرى بينهما من العتاب العذب ما تمليه بعض المناسبات، وكان الشاعر يجرى فى المضمار الذى مهده له حبه [1] منذ أن قال أبياته التى مطلعها:

ودَّع الصبرَ مُحب ودعكْ ∴ ذائعٌ من سِرِّه ما استودَعَكْ

والتى يقول فيها البيت العذب العميق :

إن يطُلْ بعدك ليلى فلكم ∴ بُّت أَشكُو قصر الليل معكْ

وإذا جئنا لأشعار ولادة التى قالتها هياماً بالشاعر الوزير الذى منحته الكثير من الحب ووهبته الوفير من الود فقالت فيه أجمل الغزل وأرقه، وأنشأت فيه الرائق من الأبيات اللطاف، والعذب من القصائد الآسرة.

ومن أقوالها الغزلية ما أرسلته إلى ابن زيدون تستحثه وتنشطه لزيارتها:

تَرَقَّبْ إذا جَّن الظـــــلامُ زيارتى فإنى رأيــتُ اللـــيل أكتم للسرَّ

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلحُ وبالبدرِ لم يطلع وبالليل لم يسر

ويروى البيت الثانى رواية أخرى لا تقل رقة عن الرواية السابقة:

وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدْجى وبالنجم لم يَسْر

يقول ابن بسام معلقاً على هذين البيتين [2]:

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عنبره، أقبلت بقد كالقضيب، وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا إلى روض مُدبج،

(١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه /١٩٠،١٨٩.
(٢) الذخيرة /ق/١/م١/٤٣٠.

وظل سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها، باح كل منا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجنى أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحاً، انشدتها ارتياحاً.

ومن وجدانياتها قولها متشوقة ومترققة، ومتشكية فراق صاحبها ابن زيدون وقد غاب عنها بعض الوقت:

ألا هل لنا من بعد هذا التَّفرق ∴ سبيل فيشكو كلُّ صبٍّ بما لَقى

وقد كنت أوقات التزاور فى الشتا ∴ أَبيتُ على جَمْرٍ من الشوقِ محرقِ[1].

وتكثر لقاءات ولادة وابن زيدون وتجرى بينهما أسمار يتخللها عزف جارية أو غناء قينة، وكان منتدى ولادة عامراً بالشعر والموسيقى والغناء، وكانت هى نفسها ذات مشاركة فى صنعة الغناء، وكانت لها جارية سوداء حسنة الصوت بارعة العزف اسمها عتبة غنت ذات ليلة:

أَحبَّتنا إنِّى بلـــفتُ مؤمَّلى ∴ وساعَدَنى دَهْرى وواصلنى حُبِّى

وجاء يُهَنينى البشيرُ بوصله ∴ فأعطيتهُ نفسى وزدتُ له قَلبى

والبيتان من الشعر المتوسط ولكن يبدو أن عتبة قد أحسنت أداءهما مما دفع بابن زيدون إلى التحمس لها والتماس إعادة اللحن، فتتحرك غيرة المرأة المحبة فى خاطر الشاعرة الأميرة فتنشئ أبياتاً تدافع فيها عن جمالها وكبريائها، وتعنف ابن زيدون بقول يتأرجح بين الشدة واللين والعتاب والرجاء فى أسلوب تخيرت معانيه وألفاظه بعناية وأناقة فقالت:

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا ∴ لم تهو جاريتى ولم تتخير

وتركت غصنا مثمراً بجماله ∴ وجنحت للغصن الذى لم يثمر

ولقد علمت بأننى بدر السما ∴ لكن دهيت لشقوتى بالمشترى

---

(١) سبق ذكر هذه الأبيات فى غرض الشكوى.

والأبيات تدل على غيرة وحمئة صدر الأنثى.

كما تدل على مدى حب ولادة للأناقة والزينة، تحبها فى شخصها وتحبها فى شعرها، ومن ثم شبهت نفسها بالغصن المثمر، كما جعلت من نفسها نداً للبدر فى سمائه، وأما الزينة التى نمنمت بها أبياتها بلون من التلاعب اللطيف حين أجرت طباقاً بين البدر والمشترى فهذا منير مشرق وذاك مظلم آفل، فهى مجرد أناقة فرضتها طبيعة ولادة كأنثى وكأميرة وكشاعرة[1].

وعوداً على بدء؛ فإن ملكة ولادة الأدبية لم تتحصل عليها من كونها شاعرة ومتذوقة فقط، بل إن كتب الأدب تروى أنها كانت على درجة حسناء فى النقد الأدبى.

ومما قد روته كتب التراث عن ملكة النقد الأدبى لدى ولادة بأنها قد طلبت من ابن زيدون أن ينظم قصيدة فى أبى عبد الله البطليوسى ويداعبه بها، فأرسل لها ابن زيدون قصيدة تزيد عن عشرين بيتاً. كان منها قوله:

فإن قصارك الدهليز حين سواك فى المضجع

فاستدركت عليه ولادة، وقالت: يحسن أن تقول:

فإن قصارك الإسطبل حين سواك فى المضجع

فلا غرابة أن نجد كل هذه الفتنة الأدبية بولادة من القدماء والمحدثين، مع أن كتب الأدب لم تحفظ لنا الكثير من أشعار ولادة. «سبعة وعشرون بيتاً من خلال إحدى عشرة مقطوعة».

وهذا الأمر له عدة احتمالات منها:

١- أن تكون ولادة متذوقة للأدب والشعر أكثر منها صانعة لهما.

٢- أن قصائدها قد فقدت جملة مع ما قد ضاع من التراث الأدبى – وخاصة أن النصارى الأسبان قد جمعوا كتب المسلمين وأحرقوها بعد احتلالهم للأندلس.

---

(١) راجع الادب الأندلسى/١٨٤.

٣- أن مساجلاتها الأدبية فى منتداها الأدبى قد صرفتها وشغلتها عن صقل ملكة الشعر لديها.
٤- أنها احتفظت بأكثر نظمها ولم تنشره أمام الآخرين.

على أية حال؛ فإن الذى وصلنا من شعر ولادة يتراوح فى مواضيعه بين الغزل المرهف الرقيق، والعتاب المر الساخن والهجاء المقذع الفاحش(١).

ولعل من أشهر أبياتها التى قد ذاعت وانتشرت، هما البيتان الشهيران اللذان يقال بأنها كتبتهما مُذهبين على ثوبها، وهما:

أنا والله أصـــــلح للمعالى ∴ وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر:

وأمكن عاشقى من صحن خدى ∴ وأعطى قبلتى من يشتهيها

وأما ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها، فآية من آيات فاطرها مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس، وكان بقرطبة أحد أعيان المصر، وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار، وقد نشر أبو عامر كميه، ونظر فى عطفيه وحشر أعوانه إليه، فقالت له: أبا عامر:

أنت الخصيبُ وهذه مصر ∴ فَتَدفَقا فكـــلاكما بحـرُ

فتركته لا يحير حرفاً، ولا يرد طرفاً.

وطال عمرها وعمر أبى عامر، حتى أربيا على الثمانين وهو لا يدع مواصلتها، ولا يغفل مراسلتها(٢).

---

(١) سبقت أبياته عند الحديث عن غرض الهجاء.

(٢) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة /تحقيق د/إحسان عباس/ ط / دار الثقافة، بيروت، قسم أول، مجلد أول، ٤٣٢.

حفصة بنت الحاج الركونية [1]

والوزير أبى جعفر أحمد بن سعيد

هناك تشابه فى بعض جوانب قصة أبى جعفر بن سعيد وحفصة الركونية، وقصة ابن زيدون وولادة، فأطراف القصتين شعراء، وعناصر القصة متشابهة وكانت الطبيعة الأندلسية مسرحاً للقصتين، وكانت الغيرة عنصراً متشابهاً.

فحفصة فى غرناطة على زمانها مثل ولادة فى قرطبة على زمانها أيضاً، بل إن حفصة أشعر، وهى فى غزلها أكثر جرأة فى الهجوم على معانى العشق والإثارة والغيرة وإذا كانت ولادة قد ارتبطت بابن زيدون الوزير الشاعر الكاتب، فإن حفصة هى الأخرى قد ارتبطت بالوزير الشاعر الكاتب أبى جعفر أحمد بن سعيد وزير بني عبد المؤمن، وإذا كان ابن زيدون قد لقى منافساً فى حبه ولادة، فإن ابن سعيد قد صادف هو الآخر منافساً أقوى منه فى حبه لحفصة، لقد كان المنافس لابن زيدون وزيراً مثله هو أبو عامر بن عبدوس، أما منافس ابن سعيد فهو الملك نفسه أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على الذى كان يلقب بأمير المؤمنين. وإذا كان الدهر قد قلب ظهر محنه لابن زيدون فإن ذلك كان فى حرمانه من ولادة وانقلابها عليه واغترابه منفيا من بلده، وأما أبو جعفر فقد كان حظه من حفصة أوفر من حظ ابن زيدون من ولادة فقد ظل معشوقاً طول عمره إلا فى فترات الدلال وهى قصيرة، بل لعله كان أكثر وقته مطلوباً وليس طالباً، ولكنه لسوء الحظ وقع فى حبه لحفصة فى منافسة كان أهلا لها من حيث الجمال والعقل والشعر ولكن لم يكن أهلا لهذه المنافسة من حيث السلطة والقوة، فمازال به الملك العاشق المنافس حتى تلمس له أسباباً مفتعلة وقتله.

---

(١) هى حفصة بنت الحاج، كان مولدها فى غرناطة بُعَيْد سنة ٥٣٠هـ–١١٣٥م، فى أسرة ذات شرف وجاه وغنى، وشبت حفصة فكانت فتاة جميلة ذكية متأدبة مثقفة، تعرف بحفصة الركونية، وهى شاعرة غرناطة فى القرن السادس، يذكر المقرى أنها كانت جميلة ذات حسب ومال، ويذكر ابن دحية أنها كانت من أشراف بلدتها غرناطة، ولع بها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك غرناطة، وتغيير بسببها على أبى جعفر بن سعيد، حتى أدى تغيره عليه أن قتله. دخلت بلاط الموحدين لتعليم الأميرات وتهذيبهن، كانت وفاتها سنة ٥٨٦هـ، فى مدينة مراكش، وفى رواية سنة ٥٨٩هـ.

كانت حفصة شغل الأدباء والشعراء الشاغل يسعون إليها للتباري معها فى قول الشعر وللاستماع إلى ما تتفوه به من ظرف الكلمة وجمال الصورة الشعرية، ومن أبرز هؤلاء شاعرنا الوزير.

وكان أرق شعر حفصة وأكثره جرأة هو ما قالته غزلاً فى أبى جعفر بن سعيد الوزير الشاعر، أو ما أنشأته فى مقام المساجلة معه، ولم تخرج معانيها فى ذلك كله عن إطار الغزل الذى يتأرجح بين الاعتدال تارة والشطط تارات أخر.

يتولى أبو جعفر الوزارة فتكتب إليه مهنئة بأبيات من الشعر العذب قائلة[١]:

رأست فما زال العداة بظلمهم ∴ وعلمهم النامى يقولون ما رأس

وهل مفكرٌ أن ساد أهلَ زمانه ∴ جموعٌ إلى العليا حرون عن الونس

وتبدأ حفصة غزلها فى الوزير أبى جعفر فى ثوب من الاحتشام وقد بدت عواطفها وكأنها شيء غير مخصوص بأحد بعينه فتقول فى هذا المعنى:[٢]

سلامٌ يفتح فى زهره الـ ∴ كمام ويُنطق ورق الغصونْ

على نازح قد ثوى فى الحشا ∴ وإن كان تحرم منه الجفونْ

فلا تحسبوا البعد ينسيكم ∴ فذلك والله مالا يكونْ

واتفق أن بات أبو جعفر بن سعيد معها فى بستان «بحور مُؤمّل» على ما يبيت به الروض والنسيم، من طيب النفحة ونضارة النعيم، فلما حان الانفصال قال أبو جعفر[٣]:

رعى الله ليلاً لم يرح بمذمَّم ∴ عشية وارنا بَحْور مؤمّل[٤]

وقد خفقت من نحو نجد أريجةٌ ∴ إذا نفحت هبت بريَّا القرنفل

وغرد قمرىٌ على الدوح وانثنى ∴ قضيبٌ من الريحان من فوق جدول

---

(١) نفح الطيب/٤/١٧٦.

(٢) نفح الطيب/٤/١٧٥، ١٧٦.

(٣) نفح الطيب/٤/١٧٧، والإحاطة فى أخبار غرناطة/ المجلد الأول/٤٩١.

(٤) هو بقعة من منتزهات غرناطة الإسلامية اشتهرت بجمالها.

يـرى الـروض مسـروراً بمـا قـد بدالـه ∴ عنـــاقٌ وضـــم وارتشـــافُ مُقَبَّـــلِ

وكتب بها إليها بعد الافتراق، لتجيبه على عادتها فى مثل ذلك، فكتبت إليه على عاداتهما فى التراسل شعراً، ولكن نظرتها إلى الرياض الكاسية والمياه الجارية والأطيار الصادحة والنجوم المنورة تختلف تماماً عن نظرة الوزير العاشق المرح، إنها بنظرة المرأة تغار من كل شىء وتعتبره حائلاً أو راصداً أو واشياً أو حاسداً، ومن ثم فإنها ترد عليه بأبيات تحمل هذه المعانى المتشائمة، النابع تشاؤمها من الغيرة وخوف الحسد:

لعمـرك مـا سُـرَّ الريـاض بوصـلنا ∴ ولكنـه أبـدى لنـا الغـلَّ والحسـدْ

ولا صـفق النهـرُ ارتياحـاً لقربنـا ∴ ولا غـرد القمـرى إلا لمـا وجـد

فـلا تحسـن الظـن الـذى أنـت أهلـه ∴ فمـا هـو فـى كـل المـواطن بالرشـد

فمـا خلـت هـذا الأفـق أبـدى نجومـه ∴ لأمـرٍ سـوى كيمـا تكـون لنـا رصـد

إنها غيرة المرأة العاشقة تعبر عنها فى جرأة وتشاؤم، وتلح على هذا المعنى فى علاقتها بالوزير الشاعر فتقول ما هو أكثر إلحاحاً على هذا الجانب من مشاعر العشاق[1]:

أَغارُ عليك من عينى رقيبى ∴ ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أنى وضعـتك فى عيونى ∴ إلى يوم القيامة ما كفانى

«هذا لون جديد من غزل المرأة أكثر اندفاعاً من طبيعة المرأة المحبة، ولكن فى حفصة جرأة على الغزل ونهم إلى الحب يدفع بها إلى الغيرة»[2].

وفى حب أبى جعفر تفقد حفصة دلال المرأة وتمنعها وكبرياءها، فالمرأة مهما بلغ بها العشق ومهما صنعت بها الصبابة، فإنه يجمل بها أن تكون مطلوبة

(١) نفح الطيب/٤/١٧٦، تاريخ الأدب العربى/٥/٤٩٢.
(٢) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه /٢٢٤، وما بعدها.

لا طالبة ومرغوبة لا راغبة، ومعشوقة لا عاشقة، ولكن شاعرتنا تضرب بكل ذلك عرض الحائط، وتظهر استبداد الشوق بها فتقول مرسلة إليه هذه الأبيات:

أزوركَ أم تـــزور فـــإن قلبـــي ∴ إلى مـــا تشـــتهى أبـــداً يميـــلُ

فثغـــري مـــوردٌ عـــذب زلال ∴ وفـــرع ذؤابتـــي ظـــل ظليـــلُ

وقـــد أملـــت أن تظمـــا وتضـــحى ∴ إذا وافـــى إليـــك بـــي المقيـــل

فعجِّـــل بـــالجوابِ فمـــا جميـــل ∴ إبـــاؤك عـــن بثينـــة يـــا جميـــل

إنه لون جديد كل الجدة على شعر المرأة بصفة خاصة والشعر بصفة عامة، وظاهرة لا يكاد يقبلها مجتمع عربى غير مجتمع الأندلس، استجابة لمنطق طبيعة بلاد الأندلس وأهلها(١).

وهنا سؤال ما رد الوزير العاشق المعشوق؟

كان رده بيتين من الشعر رائعين يتسمان بالرزانة والهدوء والتأنى يقول:

أجلكـــم مـــا دام بـــي نهضـــةٌ ∴ عـــن أن تـــزوروا إن وجـــدت الســـبيلْ

مـــا الـــروض زوارا ولكنمـــا ∴ يـــزوره هـــب النســـيم العليـــل

فما أرقه من جواب وما أعذبه من شعر وما أبرعه من معنى.

على أن حفصة فى أبياتها السابقة قد وضعت معشوقها فى موضع التخيير «أزورك أم تزور» ولكنها فى هذه المرة لا تفعل ذلك. فماذا فعلت حفصة؟ فلنستمع إلى ما فعلته على لسان معشوقها، يقول أبو جعفر بن سعيد:

أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة، ومن بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمى، وبر قسمى، أنى كنت يوماً فى منزلى مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم نشعر إلا بالباب

(١) نفح الطيب/٤/١٧٨.

يضرب، فخرجت جارية تنظر من الضارب فوجدت امرأة، فقالت لها: ما تريدين؟ فقالت" ادفعى لسيدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها:

زائـــرٌ قـــد أتـــى بجيـــدِ الغـــزال ∴ مطلـــعٌ تحـــت جنحـــه للـــهلال

بلحـــاظٍ مـــن ســـحر بابـــل صـــيفت ∴ ورُضـــاب يفـــوق بنـــت الـــدَّوالى

يفضـح الـورد مـا حـوى منـه خـد ∴ وكـــذا الثغـــر فاضـــحٌ لـــلآلى

مـــا تـــرى فـــى دخولـــه بعـــد إذنٍ ∴ أو تـــراه لعـــارضٍ فـــى انفصـــال

قال: فعلمت أنها حفصة، وقمت مبادراً للباب، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به.وتفضله بالزيارة دون طلب فى وقت الرغبة فى الأنس به(١).

إنها تذهب بنفسها مقتحمة، وتطرق بابه فى جرأة وتبعث إليه ببطاقة كتبت فيها شعراً يتفق مع سجيتها كله إثارة وتشويق وتحريض.

لقد كان أبو جعفر على حبه الشديد لحفصة فى نهاية من الاتزان قولاً وسلوكاً، وكانت هى فى منتهى الرعونة قولاً وسلوكاً، إن غزلها بالرجل قد فاق غزل الرجال بالنساء، هذا بغض النظر عن أشكال الإثارة التى تضمنتها رسائلها الشعرية إلى صاحبها، وأى شاعرة أنثى تفوق حفصة فى قولها هذا فى الغزل؟

ثَنَائى على تـلك الثَّـنايا لأننى ∴ أقولُ على علم وانطقُ عن خُبْرِ

وأنصفها – لا أكذب الله – إننى ∴ رشـفت بها ريقاً أرقَّ من الخمر

إن الصورة الغزلية نفسها – على جرأتها لصدورها من امرأة – جمعت إلى الصراحة حسن التصوير واصطناع الدلال، كما عمدت إلى صيغة الجد الساخر في تحرزها «لا أكذب الله» (٢).

لقد كان أبو جعفر ملكاً يجلس على عرش قلب حفصة، وكان هناك ملك آخر يجلس على عرش الحكم ويطمع فى عرش ذلك القلب، فلم يفلح فى أحلامه، فلم يملك مؤهلات تمهر قلب الشاعرة، فاستغل سلطانه وأزاح منافسه من أمامه

(١) نفح الطيب/٤/١٧٩.
(٢) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه/٢٢٨.

قتلا سنة ٥٥٩هـ/١١٩٨م، فحزنت عليه حفصة كثيراً وجاهرت برثائه والبكاء عليه، لبست الحداد، فهددها أمير غرناطة أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، فقالت:

هددوني من أجل لبس الحداد ∴ لحبيب أردوه لى بالحداد

رحم الله من يجود بدمع ∴ أو بنَوْح على قتيل الأعادى

وسقته بمثل جود يديه ∴ حيث أضحى من البلاد الغوادى

ومن مراثيها فيه[1]:

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظرى ∴ وقد غبت عنهُ مظلماً بعد نوره

سلامٌ على تلك المحاسن من شَجٍ ∴ تناءت بنعماه وطيب سروره

وقولها فى ذلك أيضاً [2]:

سلوا البارِقَ الخفاق والليلُ ساكنٌ أظلَّ بأحبابى يذكرنى وَهْنا

لعمرى لقد أهدى لقلبى خفقه وأمطر عن مُنْهَلٍّ عارضه الجَفْنا

هكذا كانت حفصة بنت الحاج الركونية أستاذة قديرة وأديبة بارعة وشاعرة كبيرة؛ وهى بلا ريب أشهر شاعرات الأندلس، ولعلها أكبرهن، كانت سريعة الخاطر، ورقيقة الشعر تميل إلى شىء من الصناعة وفى شعرها كثير من الصدق وشىء من التهكم والفكاهة وتدور فنون شعرها على المدح والغزل والعتاب، ومعظم شعرها فى المناسبات التى ربطتها بأبى جعفر أحمد بن سعيد وبالمناسبات التى جمعتها به، وقصتها معه تشبه قصة ولادة وابن زيدون، ولكن بصورة عكسية، لقد علا صوتها بحب ابن أبى جعفر، وذاع شعرها فيه، وكانت أقرب إلى النفس وإن كانت أقل تليناً وعنفاً.

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد المغربى/١٣٩/٢.
(٢) المرجع نفسه/١٣٩/٢، نفح الطيب/١٧٦/٤.

اعتماد الرميكية والمعتمد بن عباد

ولنقف على نموذج آخر للعشق والهوى، يختلف عن النموذجين السابقين، فالمحب ملك شاعر، والمعشوقة جارية، أحبها الملك من أعماق قلبه وتزوجها، وقال فيها شعراً كثيراً. إنها اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد(١).

كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث،حلوة النادر، كثيرة الفكاهة، لها فى كل ذلك نوادر محكية، وكان المعتمد كثيراً ما يأنس بها، ويستظرف نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء، وكانت فى عصرها ولادة بنت المستكفى، وأخبار ابن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة.

فلم يخطر ببال رميك بن حجاج الأندلسى – أحد تجار إشبيلية – وهو يتولى تعليم جاريته اعتماد التى برعت فى الأدب وأضحت تنظم الشعر، أنها ستصبح ملكة إشبيلية.

فقد استطاعت أن تنال إعجاب المعتمد بذكائها وجمالها ففضلها على زوجاته ومحظياته فى حياته. وحين وفاته، جعل قبرها إلى جوار قبره الذى زينه بأبيات شعرية نظمها الأمير الشاعر المعتمد بن عباد فى رثاء حاله، وأمر أن تكتب على قبره فقال:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد

وكانت اعتماد لسمو مكانتها وتمكن نفوذها يطلق عليها «السيدة الكبرى»، وكانت تسرف فى دلالها على المعتمد، من ذلك أنها طلبت منه أن يريها الثلج، فزرع لها أشجار اللوز على جبل قرطبة حتى إذا نور زهره بدت الأشجار وكأنها محملة بالثلج الأبيض.

ومن أخبارها القصة المشهورة فى قولها: «ولا يوم الطين» وذلك أنها رأت الناس يمشون فى الطين، فاشتهت المشى فى الطين، فأمر المعتمد، فسحقت أشياء من الطيب، وُذرَّتْ فى ساحة القصر حتى عمته، ثم نُصبت الغرابيل، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواريها، وغاضبها فى بعض الأيام، فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط، فقال: ولا يوم الطين؟ فاستحيت واعتذرت، وهذا مصداق قول نبينا ﷺ فى حق

(١) سبق ذكر معرفته بها والزواج منها فى الحديث عن مجالس الشعر.

النساء: « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيراً قط».

ولعل المعتمد بن عباد أشار فى أبياته الرائية إلى هذه القصة حيث قال فى بناته:

يَطَأن فى الطينِ والأقدام حافيةٌ كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً

وسبب قول المعتمد ذلك ما حكاه الفتح قال:

وأول عيد أخذه – يعنى المعتمد – بأغمات وهو سارح وما غير الشجون له مبارح، ولا زى إلا حالة الخمول، واستحالة المأمول، فدخل عليه من بنيه، من يسلم عليه ويهنيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار، كأنها كسوف وهن أقمار، يبكين عند التساؤل، ويبدين الخشوع بعد التخايل، والضياع قد غير صورهن، وحير نظرهن، وأقدامهن حافية وآثار نعيمهن عافية، فقال[1]:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعةً يغزلن للناسِ ما يملكن قِطْميرا
برزن نحوكَ للتسليم خاشعة أبصارُهن حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

فمن نعيم الأندلس سيق ملك اشبيلية إلى ضيق ذات اليد وذل الحاجة بسجن أغمات، فلم يكن له من مؤنس سوى أولاده وأمهم التى ظلت تؤنس وحدته وتلهم قريحته بسؤالها حينا ومواساتها أحياناً أخرى.

فقد قالت له وهما بأغمات: يا سيدى لقد هُنّا هنا، فقال:

قالت: لقد هنا هنا مولاى أين جاهنا
قلت لها إلهنا صيرنا إلى هنا

وحكى أنها قالت له وقد مرض: يا سيدى، مالنا قدرة على مرضاتك فى مرضاتك[2].

ماتت اعتماد ومات المعتمد وظلت أخبارهما متداولة بين الأدباء والشعراء.

---

(١) نفح الطيب/٤/ ٢٧٣.
(٢) نفح الطيب/٤ /٢١٢.

الفصل الثالث

شواعر الأندلس ـ ملامح فنية

أولاً:

المضمون والمحتوى

لقد كان للحياة اللاهية المترفة التي عاشها أهل الأندلس جميعهم بصفة عامة، وملوكهم وأمراؤهم بصفة خاصة، وما عرف لديهم من انتشار مجالس اللهو والغناء وتعدد دور المتعة والسماع وما يدور فيها من ألوان الخلاعة والمجون وما شيدوا من حدائق غن ورياض فيح وقصور شاهقة وأبنية سامقة أقيمت لذلك أو لبعضه. أثر كبير على نتاج شواعر الأندلس.

فقد أفسح ذلك لشعرهن مكاناً رحيباً وفرض وجودهن بصورة لم تحدث للقلة من نظرائهن فى المشرق، على أنهن لم يسهمن فى كل فنون الشعر وموضوعاته، وأكثر ما قلن فيه من الأغراض كان الغزل ووصف الطبيعة، والهجاء والمديح والشكوى.

وأستعرض في هذا السياق ملامح المحتوى الذي انطوى عليه شعرهن في الأغراض السالف بينها ومنها :

الغزل:

وهو من أكثر الأغراض رواجاً وأوسعها انتشاراً عند شواعر الأندلس، ومرد ذلك إلى ما عرفوا به من الرقة والميل للهو والدعة، وكثرة مجالس الأنس والطرب وغيرها من الأسباب سالفة الذكر.

وكانت شواعر الأندلس أكثر جرأة فى إظهار مشاعر الحب والعشق والهوى من شاعرات وشعراء المشرق.

تقول نزهون الغرناطية رداً على الوزير أبى بكر بن سعيد – وكان من أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها – حين كتب لها مرة [1]:

يا من له ألفُ خل　　من عاشقٍ وصديق
أراكَ خليت للنا　　س منزلا فى الطريق

فأجابته:

حللت أبا بكر محلاً منعته سواك　　وهل غير الحبيب له صدرى

(١) نفح الطيب/٤/٢٩٥.

وإن كان لى منكم حبيب فإنما يقدم أهل الحق حُبَّ أبى بكر

ومن غزلها الذى تصف فيه ليلة من ليالى عشقها قولها:

لله در الليالى مـــــا أحيسنها وما أحيسن منها ليلة الأحـــدِ
لو كنت حاضرنا فيـــــها وقد غفلت عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحد
أبصرت شمس الضحى فى ساعدى قمر بل ريم خازمة فى ساعدى أسد

ومنهن من طرحن كل معنى من معانى الكبرياء التى هى من مستلزمات طبيعة المرأة. مثل الشاعرة أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح[1] إذ تقول[2]:

يا معشر الناس ألا فاعجبوا مما جنته لوعةُ الحبِّ
لولاه لم ينزل ببدر الدجى من أفقه العلوى للترب
حسبى بمن أهواهُ لو أنّــه فارقنى تابعهُ قلبى

فالشاعرة تشهر حبها، فتنادى على الناس تطلب منهم أن يعجبوا معها على ما سببه الحب من لوعة وجوى .

ومما شاع بين شواعر الأندلس الغزل بالمؤنث أو الجنسية المثلية، كما عند حمدونة بنت زياد، وهذه الظاهرة لم تكن معروفة لدى شاعرات المشرق.

وصف الطبيعة :

ومن الموضوعات المهمة التى خاضتها شواعر الأندلس وصف الطبيعة ولاغرو فقد وهب الله الأندلس طبيعة ساحرة خلابة، فكانت أغنى بقاع الأرض منظراً وأوفرها جمالاً فشغف بها الشعراء والشاعرات، وأقبلوا يسرحون النظر فى خمائلها، ويستمتعون بمفاتنها، فوصفوا الرياض والبساتين، والأشجار والثمار، والأزهار والطيور ووصفوا السحاب والرعد، والبرق والطيف، والأنهار والبحار ومن أشهر شواعر الأندلس اللآتى فجرت الطبيعة الساحرة طاقاتهن الشعرية حمدونة بنت زياد المؤدب وأم العلاء بنت يوسف الحجارية.

---

(١) بنت ملك المرية، اعتنى المعتصم بتأديبها لما رآه فيها من ذكاء، كانت تنظم الشعر، وعشقت الفتى المشهور بالجمال من دانية المعروف بالسمار، وعملت فيه الموشحات. راجع الأغانى للأصفهاني/ والمغرب فى حلى المغرب.

(٢) نفح الطيب/٤/١٧٠.

كما ربطوا بين وصف الطبيعة وبين فن الغزل، فمجالس الغزل لا تعقد إلا فى أحضان الطبيعة. فأصبحت الطبيعة ملاذا وملجأ ، يبثونها أفراحهم وأتراحهم وهمومهم وأحزانهم، فتفرح كما يفرحون وتحزن كما يحزنون.

تقول حفصة بنت الحاج الركونية:

زائر قد أتى بجيد الغزال مطلع تحت جنحه للهلال[1]

فقد ربطت الشاعرة بين غزلها فى معشوقها وبين الطبيعة كما وصفت نفسها مبدية مفاتنها مفصلة محاسنها فى صور من محاسن الطبيعة، فالطبيعة ترى فى المرأة ظلها وجمالها.

فما المرأة إلا قطعة من الطبيعة، وما الطبيعة إلا مكملة للمرأة.

الهجاء والشكوى :

ومن الموضوعات التى ظهرت بكثرة عند شواعر الأندلس موضوع الهجاء، فقد طرقته الشاعرة الأندلسية، وأفحشت فيه وتجرأت على ذكر السوءات والألفاظ البذيئة التي يخجل الرجل من روايتها.

كما رأينا عند ولادة بنت المستكفى، ومهجة بنت التيانى، ونزهون الغرناطية.

ومن الموضوعات التى ولجتها الشاعرة الأندلسية غرض الشكوى كما رأينا عند مريم بنت أبى يعقوب الأنصارى والغسانية البجانية وحفصة بنت حمدون وولادة وحسانة التميمية.

وشاعرة من إشبيلية اسمها أسماء العامرية، لم يصل الينا من شعرها إلا أبيات قليلة بعثت بها إلى عبد المؤمن بن على ملك الموحدين، انتسبت فيها إليه وطلبت رفع ما وقع على أموالها من اعتقال، وتسأله فى رفع الانزال عن دارها، تقول فيها [2]:

عرفنا النصر والفتح المبينا لسيدنا أمير المؤمنينا

---

(١) سبق ذكر الأبيات .

(٢) نفح الطيب/٤/٢٩٢.

إذا كان الحديث عن المعالى رأيت حديثكم فينا شجونا

ومنها:

رويتم علمه فعلمتموه وصُنتم عهده فغدا مصونا

وحين يستبد ظلم الحكام وأصحاب الخراج ببلدة تسمى شلب، تخرج شاعرة منها تنسب إليها يقال لها الشلبية[1]، يرتفع صوتها تشكو الظلم وتكافح الفساد، فكان هذا الصوت الجرىء لشاعرة رصينة جريئة حين لم تستطع أصوات أخرى أن ترتفع فقالت موجهة شعرها إلى السلطان يعقوب المنصور[2] أحد ملوك الموحدين:

قد آنَ أنْ تبكى العيون الآبيه ∴ ولقد ارى أنّ الحجارةَ باكيهْ

يا قاصد المصر الذى يرجى به ∴ إن قدر الرحمنُ رفع كراهيهْ

ناد الأمير إذا وقفت ببابه ∴ يا راعيا إنَّ الرعية فانيهْ

أرسلتها همالاً ولا مرعى لها ∴ وتركتها نهب السباع العاديهْ

شلبٌ كلا شلب وكانت جنة ∴ فأعادها الطاغون ناراً حاميه

حافوا وما خافوا عقوبة ربهم ∴ والله لا تخفى عليه خافيهْ

فيقال: إنها ألقيت يوم الجمعة على مصلى المنصور، فلما قضى الصلاة وتصفحها بحث عن القصة فوقف على حقيقتها وأمر للمرأة بصلة.

ومن شواعر الأندلس اللاتى شكون ضياع الشباب وذهاب الجمال، وانعدام القرين ومقاساة الوحدة الشاعرة قسمونة بنت إسماعيل اليهودى [3]، حين نظرت فى المرآة ذات يوم وهى فى شرخ شبابها ولم تتزوج بعد فأنشدت:

---

(١) لم يقف ابن الابار على اسمها.

(٢) حكم يعقوب بن المنصور بين سنتى ٥٩٥ –٦٠٩هـ.

(٣) قسمونة بنت إسماعيل النغريلة شاعرة أندلسية يهودية، عاشت فى حوالى سنة ١٠٠٩م، وللأسف لم تذكر المصادر نسبها كاملاً.

أرى روضةً قد حان منها قطافها ولســـتُ أرى جانٍ يمد لها يداً

فوا أسفا يمضى الشباب مضيعاً ∴ ويبقى الذي ما إن أسميه مفرداً

وتمضى قسمونة على رسلها فى الشكوى بأسلوب رشيق وعبارة غنائية وقسمات كسيفة ومعان حزينة عندما يقع بصرها على ظبية كانت تقتنيها فتقول مخاطبة إياها:

يا ظبية ترعى بروضٍ دائماً إنى حكيتُك فى التوحشِ والحورْ

أمسى كلانا مفرداً عن صاحب فلنصطبر أبداً على حُـكم القدرْ

وبعد أن ألقيت الضوء على ملامح مضامين شعر شواعر الأندلس أستطيع أن ألخص ما انتهيت إليه في النقاط التالية :

أولاً: أكثر الأغراض الشعرية التي عالجهتها شواعر الأندلس هى الغزل، ووصف الطبيعة، والهجاء، والشكوى، والمدح ويلاحظ ظهور روح المجون والإباحية والتحرر على غزلهن مما يعبر عن الأوضاع الاجتماعية الأندلسية.

ثانيا: شاع بين شواعر الأندلس الغزل بالمؤنث، وهذه الظاهرة لم تكن معروفة لدى شاعرات المشرق.

ثالثاً: ظهر بكثرة موضوع الهجاء الذى طرقته المرأة الأندلسية وخاصة فى القرن الخامس الهجرى، وقد أفحشن فيه وتجرأن على ذكر السوءات، والألفاظ البذيئة التى يخجل منها الرجل.

رابعاً: من الموضوعات التى تميزت بها الشاعرة الأندلسية أنها أباحت لنفسها أن تتغزل فى الرجل كما يتغزل الرجل فى المرأة سواء بسواء، والذى نرجعه إلى عدة أسباب منها:

- الحرية المبالغ فيها والتى جرفت المرأة فى المجتمع الأندلسى.
- ضعف الوازع الدينى لديهن.
- كثرة المفاسد والمثالب التى سادت مجتمع الأندلس.

خامساً: تبين من خلال البحث أن الشاعرات الأندلسيات لم ينظمن فى جميع الأغراض الشعرية المعروفة فلم يصلنا منهن شعر فى الزهد أو الفلسفة أو الحماسة وكذلك الرثاء إلا نادراً، مع أن الرثاء يعد من أهم الموضوعات التى

نظمت فيها المرأة المشرقية، وهو أقرب إلى نفسية المرأة التى تعد أرهف إحساساً وأقوى عاطفة من الرجل.

سادساً: لفت النظر فى دراسة هذا البحث أن الأغراض الشعرية لشواعر الأندلس لم تكن متداخلة مثلما هو معروف عند الشعراء من اختلاط المديح بالغزل، أو الفخر بالهجاء، وهكذا اللهم إلا شعر الطبيعة ووصفها فهو متداخل مع غيره من الأغراض كالغزل والمديح والشكوى. كما رأينا.

ولعل السبب فى عدم تداخل معظم شعرهن إلى أن أغلب شعرهن مقطعات وأبيات إذ لم يعرف عنهن إلا بعض القصائد. ولذلك كن يدخلن فى الموضوع مباشرة دون مقدمات.

ثانياً

التشكيل اللغوى والأسلوبى

للشعر الأندلسى عذوبته ورقته وجمال ألفاظه وحلاوة عباراته ورشاقة أساليبه، ولا غرو فجمال البيئة وسحر الطبيعة وبهجة الحياة أضفت على ألفاظهم وأساليبهم طلاوة وحلاوة وسحراً وسهولة ويسرا، تسمع الألفاظ أو تقرؤها فتواتيك معانيها أرسالا، وتنثال عليك انثيالا دون حاجة إلى معجم ترجع إليه فى شرح كلمة أو تفسير لفظة إلا فيما ندر.

وهكذا جاءت ألفاظ شعر الأندلسيات سهلة رقيقة عذبة خالية من الغموض والالتواء، بعيدة عن التكلف والتصنع فجاء أكثر شعرهن جارياً مع الطبع.

وكان تأنقهن فى ألفاظهن وأساليبهن يمضى فى نفس الاتجاه الذى ألفوه فى حياتهن العامة والخاصة ذوق مرهف، وإحساس رقيق، وتناول فنى أنيق لكل شىء يقع تحت أيديهن وأسماعهن وأبصارهن، ولذلك فإنهن كن بمنأى عن الغريب والمبتذل اللهم إلا فى غرض الهجاء كما سبق، كما كن بمنأى عن العامى والدخيل.

كذلك كن يمقتن الاستكثار من البديع والزخارف اللفظية مما يؤدى إلى ضياع المعانى وغموضها وتعقيدها، وبذلك سلمت لهن العذوبة والرقة، وصفت لهن الأساليب فاستقامت المعانى، وانقادت لهن غرر البلاغة، وجوامع البيان.

يقول ابن الأثير: « الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه، فالجزل منها ما يستعمل فى مواقف الحروب، وفى قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك وأما الرقيق منها فإنه يستعمل فى وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفى استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك، ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعراً.. .. بل اعنى به أن يكون متينا على عذوبته فى الفم، ولذاذته فى السمع، وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكاً سفسفاً، وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس».

والشعر النسائى الأندلسى فى جملته من هذا النوع اللطيف الرقيق الحاشية، الناعم الملمس، عالجنه فيما أشار إليه ابن الأثير من الشوق والبعاد والمودة والشكوى وهذا يتحقق بشكل واضح فى الغزل ووصف الطبيعة.

وفى غيره من الهجاء والمديح والشكوى كان متينا على عذوبته على ما يقرره ابن الأثير.

وليس ذلك بغريب على هذا الفردوس الأندلسي الخليق بترقيق الألفاظ المتوعرة والمشاعر الجافة، كما رقق حاشية الحياة، ولهم فى الألفاظ نظم بديع يشيع فيها عذوبة النغم وجمال الإيقاع وحسن الائتلاف وروعة الاتساق.

تأمل قول ولادة حين حددت موعداً للقاء ابن زيدون وربما كان اللقاء الأول الذي تطارحا فيه الغرام. وها هو ذا ابن بسام يصفه لنا على لسان ابن زيدون:

قال أبو الوليد كنت فى أيام الشباب وغرة التصابي هائماً بغادة تسمى ولادة فلما قدم اللقاء وساعد القضاء كتبت إلىَّ:

ترقب إذا جَنَّ الظـــلامُ زيارتى فإنى رأيت اللـــيل أكـــتم للسرِّ
وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدْجى وبالنجم لـــم يَسْر

وتأمل قول أم العلاء بنت يوسف الحجارية حين وقع رجل أشيب فى حبها، وحاول لفت نظرها إليه بشتى الطرق ولكنها تبعث إليه بيتين ناعمين مشتملين بالحكمة ملتفين بالدعابة، وكأنها تربت على كتفه فى نعومة وبسمة قائلة[1]:

الشيب لا يخدع فيه الصبا بحيلة فاســـمع إلى نصحى
فلا تكن أجهل من فى الورى يبيت فى الجهل كما يضحى

فقد وصلت لغة الشعر من السهولة واليسر إلى درجة كادت تقترب فيها من لغة النثر، من مثل قول ولادة الهائمة بالشاعر الملهم المحب العاشق:

ترقب إذا جن الظـــلام زيارتى فإنى رأيت اللـــيل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالليل لم يسر

(١) نفح الطيب/٤/١٦٩.

لقد كان للطبيعة الأندلسية الساحرة وللبيئة الأندلسية المتحضرة آثار بعيدة المدى في لغة شعر الأندلسيات جماله وعذوبته، وسهولته ورقته ويسره وبساطته.

كذلك كان لكثرة الرسائل الشعرية، وشيوع ظاهرة الارتجال بصورة واسعة أثر بالغ فى لغة الشعر وما تميزت به من يسر وسهولة وبساطة واقتراب من لغة النثر.

ومن ذلك قول حفصة بنت الحاج حين صادفت عبد المؤمن بن على فى القصر حيث كانت تعمل مؤدبة لنسائه على ما ذكرت فارتجلت بين يديه:

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده
أمـــنن على بطرس ... يكون للدهر عده
تخط يمـــناك فيه ... الحـمد لله وحده

ومن خفة روحها وصفاء بديهتها، ولشهرتها كان الناس تستوقفها ويطلبون منها تسطير شيء من شعرها على أوراق يحملونها على سبيل التذكرة، لقد أرسلت إليها سيدة من أعيان غرناطة أن تكتب لها شيئا بخطها فبعثت إليها بهذين البيتين (١):

يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم ... غُضى جفونك عما خطه قلمى
تصفحيه بلحظ الـــود منعمة ... لا تحفلى بردئ الخــط والكلم

ومن ظواهر لغة شعر الأندلسيات أنهن لا يضعن الألفاظ كما هى فى صورتها الشعرية بمالها من دلالات باهته الظل فى الحياة اليومية، بل يلقين عليها شعاعاً محموماً وطاقة قوية فوق ما كانت تحتمله من طاقات وذلك بوسائل كثيرة منها:

أولاً: التشخيص:

أى منح الحياة الإنسانية لما ليس بإنسان، حتى ليتصور ما ليس إنساناً وكأنه إنسان يحس إحساسه، ويفكر تفكيره ويفعل أفعاله.

ومن ذلك قول حفصة:

---

(١) نفح الطيب /٤/١٧١.

لعمرك ما سر الرياض بوصلنا ولكنه أبدى لنا الغل والحسد
ولا صفق النهر ارتياحاً بقربنا ولا غرد القمرى إلا لما وجد
فلا تحسن الظن الذى أنت أهله فما هو فى كل المواطن بالرشد
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه لأمر سوى كيما يكون لنا رصد

فالشاعرة خلعت على الرياض صفات الإنسان من الغل والحسد، كما خلعت على النهر صفة التصفيق والارتياح، كما أن الأفق يرصدهما بنجومه حين يظهرها فهو مراقب لهما فالغيرة والخوف من الحسد والمراقبة كلها من صفات الإنسان.

وكقول حمدونة فى وصف واديها [1]:

وقانا لفحة الرمضاء واد ....

فقد أسبغت الشاعرة على الواد صفات الكائن الحى وجسمتها فى الوقاية إلى حنو المرضعات إلى أنه يصد الشمس، ويحجبها ويأذن للنسيم.

ثانياً: التعاطف مع الطبيعة:

من خصائص أساليب شعراء الأندلس بصفة عامة وشواعر الأندلس بصفة خاصة، فقد مزجن بين الطبيعة وبين مشاعرهن وعواطفهن، فأصبحت تشاركهن آلامهن وآمالهن، وحزنهن وفرحهن.

وكتبت ولادة إلى ابن زيدون تحدد موعد لقائهما فقالت:

ترقب إذا جن الظلام زيارتى فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالشمس لم تطلع وبالبدر لم يسر

ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة على لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التى أحبها، فتنساب على شفتيه الأوصاف التقليدية، ويقول: «فلما طوى النهار كافوره ونثر عنبره [2]، أقبلت بقد كالقضيب وردف كالكثيب، وقد أطبقت نرجس المقل، عل ورد الخجل، فملنا إلى روض مدبج [3] وظل

(١) سبق ذكر هذه الأبيات.
(٢) كافوره: بياضه، عنبره: سواده، وهنا استعارتان.
(٣) مدبج: مزين بالأزهار.

وقد قامت رايات أشجاره وفاضت سلاسل أنهاره، ودر الطل منثور، وجيب الراح مزرور، فلما شببنا نارها، وأدركت فينا ثارها باح كل منا بحبه، وشكا إليه ما بقلبه، وبتنا بليلة نجنى أقحوان الثغور»[٢].

وتغضب ولادة من ابن زيدون، وتحدث قطيعة بينهما وترسل له رسالة أو صرخة إنسانية أنثوية من قلب امرأة لعبت الغيرة بقلبها، بعثت بها على جناح الطبيعة تقول:

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا
لم تهو جاريتى ولم تتخير
وتركت غصنا مثمراً بجماله
وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى بدر السما
لكن ولعت لشقوتى بالمشترى

ثالثاً: الأسلوب الدرامى:

ظهر الأسلوب القصصى عند شواعر الأندلس ومن بينهن الأميرة بثينة بنت المعتمد بن عباد[٣]، الأميرة التى شهدت مباهج ملك أبيها المعتمد ابن عباد كبير ملوك الطوائف، وكبير الشعراء الملوك، وبطل الأبطال فى معركة الزلاقة والأسير بأغمات.

إنه لما حلت النكبة بالمعتمد وأسر وحمل وزوجته إلى أغمات فى المغرب، وتعرض قصره للنهب والسلب كانت بثينة فى جملة من سبى من نساء القصر وصباياه، فاشتراها أحد تجار إشبيلية وهو لا يعلم من أمرها شيئاً ظاناً منه أنها واحدة من الجوارى وأهداها لأبنه.

---

(١) سجسج: الهواء المعتدل اللطيف.

(٢) الذخيرة/ المجلد الأول/٣٧٧.

(٣) من شاعرات إشبيلية، فى القرن الخامس، المتسمات بالخلق الجميل والرزانة، ورثت روح الشعر عن أبيها، فهى من شاعرات الأندلس، كانت ذات جمال بارع وحسن باهر، حاضرة الجواب، سريعة الخاطر، حلوة النادرة، وكانت كأمها فى «الجمال، والنادرة فى نظم الشعر»، راجع: نفح الطيب/٤/٢٨٤.

فلما أراد الدخول بها امتنعت امتناع الحرائر وأظهرت له نسبها، وقالت: لا أحل لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبى بذلك، وأشارت عليه وعلى أبيه بتوجيه كتاب منها إلى أبيها وانتظار جوابه، وكان هم أبويها لفقدها أسوأ وقعاً عليهما من زوال الملك، فقد كان متعلقين بها تعلقاً شديداً، لقد وافق الشاب ووالده على رأى بثينة فكتبت خطاباً فريداً فى بابه بين الخطابات التى كتبت فى التاريخ لقد ضمنت خطابها قصتها كاملة فى نطاق من الفطنة وإطار من السداد وجعلت منه قصيدة موشاة بحكمة الشيوخ وكانت فى عمر أزهار الربيع، مرنقة بالفخر الرائق وهى الأسيرة المغلوبة على أمرها، مفعمة بالصدق الذى كان ثمرة لعناية أبويها بتنشئتها عليه إبان الملك السليب، فكان الذى كتبته بخطها من نظمها ما قصته تقول:(١)

اسمع كلامى واستمع لمقالتى ∴ فهى السلوك بدت من الأجياد

لا تنكروا أنى سبيت وأننى ∴ بنتٌ لملك من بنى عباد

ملك عظيم قد تولى عصره ∴ وكذا الزمان يؤول للإفساد

لما أراد الله فُرقة شملنا ∴ وأذاقنا طعم الأسى من زاد

قام النفاق على أبى فى ملكهِ ∴ فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجتُ هاربةً فحازنى امرؤ ∴ لم يأت فى إعجاله بسداد

إذ باعنى بيع العبيد فضمنى ∴ من صاننى إلا من الأنكاد

وأرادنى لزواج نجل طاهر ∴ حسن الخلائق من بنى الأنجاد

ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضى ∴ ولأنت تنظر فى طريق رشادى

فعساك يا أبتى تعرفنى به ∴ إن كان ممن يرتجى لوداد

وعسى رميكيةُ الملوك بفضلها ∴ تدعو لنا باليمن والإسعاد(١)

إن الأميرة الصغيرة الغريرة كانت من الفطنة بحيث أقنعت الفتى وأباه بالانتظار، وكانت من الاعتراف بالجميل بحيث حسنت لأبيها الموافقة على

(١) نفح الطيب / ٢٨٤/٤.

الزواج، وكانت من الكبرياء بحيث لم تنس أنها أميرة وابنة ملك، وكانت من الواقعية بحيث ارتضت حكم القدر فى مصيرها، وكانت أخيراً من الشاعرية والصفاء بحيث دبجت بيراعها الرقيق قصة واقعية من أكثر القصص فى التاريخ أسى وأخذاً بمجامع الأحاسيس والخواطر، فكانت هذه القصة الشاعرة فى إطارها المؤثر العميق وأسلوبها المهذب الرقيق.

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات، واقع فى شراك الكروب والأزمات، سر هو وأمها بحياتها، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها إذ علما مآل أمرها، وجبر كسرها، إذ ذلك أخف الضررين، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب ريَنْ، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبى المذكور.

وكتب لها موافقة استهلها بما يستهل به الأب العاقل نصائحه لابنته الأميرة الأثيرة المقبلة على الزواج:

بُنيتى كونى به برةً فقد قضى الدهرُ بإسعافهِ

مما سبق يتضح أن للألفاظ والأساليب عند شواعر الأندلس سمات تميزها أهمها :

١- الوضوح والسلاسة والتأنق فى اختيار الألفاظ الرقيقة والتراكيب السلسة.
٢- التعبير عن الحياة والبيئة الأندلسية.
٣- استخدام الزخارف البيانية والمحسنات البديعية دون تكلف.
٤- الاقتداء بالشعر المشرقى والحرص على مجاراة شعرائه.
٥- الحرص على استخدام الألفاظ السهلة والابتعاد عن الألفاظ الحوشية.
٦- استخدام أسلوب القصة.

ثالثاً

التجربة الشعرية

التجربة الشعرية هى الخبرة النفسية للشاعر حين يقع تحت سيطرة مؤثر ما «موضوع انفعل به» يستهويه فيندمج فيه بوجدانه وفكره مستغرقاً متأملاً حتى يتفجر ينبوع الابداع لديه فيصوغه فى الاطار الشعرى الملائم لهذه التجربة.

فالتجربة الشعرية عملية خلق أدبى يتم فيها امتزاج كامل بين الذات والموضوع. فهى «حالة شعورية تلابس الشاعر، وتوجهه إلى موضوع أو واقعة، أو مرأى من مرائى الوجود، بحيث تؤثر فيه تأثيراً قوياً، يدفعه فى وعى أو فى غير وعى إلى التعبير عما تأثر به[1].

فالتجربة الشعرية رؤية ومعايشة وانفعال صادق وتعبير وكل ما فى الحياة من حوادث ومواقف ومشاهد، صالح لأن يكون تجربة شعرية، والتجربة الشعرية ليست مقصورة على موضوعات معينة، والشاعر الموهوب هو الذى يستطيع بمقدرته الفنية وبقوة شاعريته ونضوجه الفكرى وقوة تصويره أن يتعايش معها معايشة حقيقية ويضفى عليها من وجدانه وأحاسيسه وتصويره وإدراكه وتفكيره وأخيلته ما ينفذ به إلى ما فيها من معانى جمالية إنسانية.

وقد تعايشت شواعر الأندلس مع تجاربهن معايشة كاملة فاستطاعت أن تعبر عن بيئتهن وحياتهن وشعورهن وإحساسهن وأن ينقلنها إلى الآخرين. مع الأخذ فى الاعتبار أن تجربة الابداع النسوى فى الأندلس تجربة فريدة من نوعها، حيث أسهمت الأنثى إسهاما لا يخفى على أحد فى مجال الأدب شعراً ونثراً، وكان العطاء الأنثوى عطاءً وفيراً لا يقل عن عطاء الرجل فى بيئة كاد كل من يعيش فيها أن يقول الشعر.

والدليل على عظمة التجربة النسوية فى الأندلس ما يلى:

- كثرة الأديبات فى الأندلس كثرة فاقت الخيال، ولئن زخر المشرق العربى بالشاعرات أمثال الخنساء، وليلى الأخيلية، وعلية بنت المهدى، إلا أن الأندلس قد ختم بين ربوعه عدداً من الشاعرات يجعل شاعرات المشرق إلى جوارهن قليل جداً.

(١) انظر الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث/ مصطفى عبد اللطيف السحرتى/٢٤/٢٥.

- فاقت التجربة النسوية الإبداعية فى الأندلس قرينتها فى المشرق كماً وكيفاً، فشعر شاعرات المشرق قليل الكم إذا قيس بشعر شاعرات الأندلس. كما أن شاعرات الأندلس مارسن التجربة تجربة تامة حرم منها شاعرات المشرق، حيث خضعت شاعرات المشرق إلى حد ما لتقاليد بعينها تحسب عليهن حركاتهن وسكناتهن، وتمنع وتسمح، وتحاسب على القول والفعل، بينما كانت الصورة فى الأندلس مناقضة لذلك تماماً.

ومن ملامح نجاح التجربة الإبداعية لشواعر الأندلس أن المرأة الأندلسية قد شاركت الرجل فى أكثر فنون الشعر وأغراضه بما تتيحه لها أنوثتها، فقد تناولت المدح والغزل والوصف والهجاء، والشكوى والاستعطاف.

وأهم ما يميز التجربة الشعرية هو الصدق الفنى، وهذا الصدق الفنى «مرده إلى ما يكون من تواؤم واستجابة بين التجربة التى تتضمنها قطعة من الأدب، وبين ما يحدث أو ما يقع للإنسان من تجارب واقعة بالفعل أو ممكنة الوقوع» (١).

ومن روائع التجارب الشعرية التى نسجتها شواعر الأندلس تجربة شعرية مرت بها الشاعرة حسانة التميمية حين مات أبوها، وكانت بكراً لم تتزوج، وكان لها راتب أمر لها به الحكم، فلما مات قطع عامل إلبيرة عنها راتبها فوفدت على ابنه عبد الرحمن بن الحكم بشكية من عامله جابر بن لبيد والى إلبيرة، وتلطفت مع بعض نسائه حتى أوصلتها إليه، وهو فى حال طرب وسرور، فانتسبت إليه، فعرفها وعرف أباها. ثم أنشدته:

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى ∴ على شحط تصلى بنار الهواجر

ليجبر صدعى إنه خير جابر ∴ ويمنعنى من ذى الظلامة جابر

فإنى وأيتامى بقبضة كفه ∴ كذى ريش أضحى فى مخالب كاسر

جدير لمثلى أن يقال مروعة ∴ لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى

(١) قضايا النقد الأدبى المعاصر/د/محمد زكى العشماوى/ط/الهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٧٥م/٢، ٣.

سقاه الحيا لو كان حيا لما اعتدى ∴ على زمان باطش بطش قادر

أيمحو الذى خطته يمناه جابر ∴ لقد سام بالأملاك إحدى الكبائر

ولما فرغت رفعت إليه خط والده، وحكت جميع أمرها، فرق لها وأخذ خط ابيه فقبله ووضعه على عينيه، وقال: تعدى ابن لبيد طوره، حين رام نقض رأى الحكم، وحسبنا أن نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده، انصرفى يا حسانة فقد عزلته لك، ووقع لها بمثل توقيع أبيه الحكم، فقبلت يده، وأمر لها بجائزة.

فالتجربة التى صاغتها الشاعرة تجربة ذاتية، غير أن هذه الذاتية فى التجربة الشعرية لا ينبغى أن تفهم على أن العمل الفنى تعبير ذاتى خاص، فالمعطيات المادية التى تمثل المؤثر الخارجى لتجربة الشاعر هى فى عمومها معطيات موضوعية تشتمل ضمن ما تشتمل على وعى المجموع وبهذا يكون المقصود بالذاتية فى التجربة الشعرية هو أن هذه المعطيات الموضوعية عاينها الشاعر بوجوده الذاتى هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن تعمق الشاعر فى ذاته هو كإنسان يعد فى الواقع معايشة للإنسان بشكل عام، فهو يعيش الإنسانية كلها فى عمومها منذ الأزل، إنه بتركيبته الخارجية والداخلية يعد مجموع ما حققته البشرية خلال رحلتها مع الزمان والمكان وهكذا تنتهى الذاتية فى الأثر الفنى إلى محو الفروق والتضاد بين الأفراد لأن استكشاف الفنان لذاته إنما هو قبل كل شىء ارتياد واكتشاف للذات الإنسانية أو قل للذات الكامنة فى كل فرد منها(١).

وتجربة حسانة التميمية فى الظلم الذى وقع عليها وشكايته تجربة يقع فيها الإنسان فى كل زمان ومكان بشكل أو بآخر، أحياناً يجد من يرفع الظلم عنه، وأحياناً يظل يشكو ظلمه.. .. فهى تجربة ذاتية عند النظر إليها للوهلة الأولى

(١) قضايا النقد الأدبي المعاصر /د/ محمد زكي العشماوي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب /١٩٧٥م ، وانظر / النقد الأدبي أصوله ومناهجه/ سيد قطب/ ٢٧.

لكنها فى حقيقة الأمر موضوعية، تعيش فيها الإنسانية منذ الأزل، وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن تجارب الأندلسيات الرائعة قدرتهن ومقدرتهن على التعبير عن مشاعرها وانفعالاتها وأحاسيسها كأنثى لها فى عواطفها حقوق لا تقل عن حقوق الرجل فقالت الغزل المهتاج فى معانى الحب المقرون بالحرمان، والغزل المتوغل فى الشكوى الحزينة، لا فرق فى عواطفهن بين جارية وحرة.

قدمت جارية أندلسية متأدبة إلى المعتصم بن صمادح فأراد اختبارها فقال لها: ما اسمك؟ فقال: غاية المنى، فقال لها أجيزى:

اسألوا غاية المنى:

فقالت:

من كسا جسمى الضنا

وأرانى مولها سيقول الهوى أنا

فسحرت قلبه وأطربت سمعه بشعرها الأنثوى العذب الرقيق.

ومن تجاربهن الناضجة كل النضوج النابضة بالحياة الصافية الأسلوب، الصادقة الحس، تجربة تنبئ عن طاقة شعرية كامنة، لا تتعدى ثلاثة أبيات بثت خلالها الشاعرة كل معانى الوجد والعشق والرضا تقول زينب المرية:

يا أيها الراكب الغادى لطيته ∴ عرج انبئك عن بعض الذى أجد

ما عالج الناس من وجد تضمنهم ∴ إلا ووجدى بهم فوق الذى وجدوا

حسبى رضاه وأنى فى مسرته ∴ وده آخر الأيام اجتهد

فقد أضافت تجارب شواعر الأندلس التجديد فى المضمون والمحتوى خاصة فى غرض الغزل.

ومن تجاربهن قول حمدونة بنت زياد المؤدب:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندى وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارةوقل حماتى عند ذاك وأنصارى

غزوتهم من مقلتـــيك وأدمعى ومن نفسى بالسيف والسيل والنار

فالشاعرة تتحدث عن تجربة مر بها كل المحبين والعشاق وهى إرادة الواشين للتفرقة بين المحبين لأى سبب من الأسباب، فهى تجربة ليست ذاتية وإن كانت خاصة بحمدونة ومعشوقها.

ومن روائع تجاربهن الغزلية قول حفصة الركونية:

أغار عليك من عينى رقيبى ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أنى وضعتك فى عيونى إلى يوم القيامة ما كفانى

تجربة جديدة من غزل المرأة تبرز جرأة صاحبتها ونهمها إلى الحب، فيدفع بها الغيرة ثم ينتقل بها من مرحلة الغيرة إلى مرحلة الأثرة والأنانية، إنها تغار من كل شىء على صاحبها من المرئى وغير المرئى، ومن المعنوى والمادى، ومن الزمان والمكان.

وقد طرقت أكثر شاعرات الأندلس نفس المعنى وخاصة الشاعرات الأكثر جرأة على الغزل مما يدل على أنها تجربة إنسانية وإن ظهرت فى حقيقة الأمر تجربة ذاتية تقول الشاعرة أم الكرم فى نفس المعنى:

ألا ليت شعرى هل سبيل لخلوة ينزه عنها سمع كل مراقـب

ويا عجباً اشتاق خلوة من غدا ومثواه ما بين الحشا والترائب

بقى أن نقول إن أشد التجارب الشعرية تأثيرا تلك التى اجتمع فيها صدق الوجدان وعمق الفكر، وسمو المعنى وإنسانيته؛ لأنها حينئذ تحلق فى آفاق رحبة وتسمو إلى مستوى إنسانى يضمن لها البقاء والخلود.

ومن تجاربهم التى برز فيها صدق الوجدان وشرف المعنى وإنسانيته. ما كتبته بثينة من قصتها إلى أبيها فى سجنه؛ لأنها بقيت وستبقى شاهدة على ما آل إليه ملكها وملك أبيه. فسبحان من بيده ملكوت كل شىء وهو على كل شىء قدير.

رابعاً

الصورة الشعرية

تعد الصورة الشعرية معياراً فنياً فى دراسة الشعر ونقده بوصفها قيمة جمالية تحددها أخيلة الشعراء، وبراعتهم فى اختيار الأدق وقعاً على نفسية متلقيهم؛ لأنها تمثيل وقياس نعلمه بعقولنا على الذى نراه بأبصارنا، فضلا عن كونها وسيلة لنقل فكرة الأديب وعاطفته وهى تستوعب أبعاد الخيال المدرك واللامدرك فى آن. ولكى تؤدى الصورة دورها، لابد أن تساير الانفعال وجوه وتتساوق مع الفكرة، وإلا كشفت عن زيف انفعالى أو زيف فكرى، هذا فضلا عن أن الصورة الشعرية تعتبر بنت التجربة والانفعال والفكرة(١).

ومن المعلوم «أن الفصل مستحيل أو يكاد يكون مستحيلاً بين الفكرة والصورة لدى الفنان حين ينشىء إبداعه؛ لأن خواطره الفنية تفد إلى نفسه متسربلة بصورها الأدبية فهو لا يأتى بمعان عقلية، ثم يبحث عن صور تظهر بها هذه المعانى، ولكنه يأتى بخواطر مزدانة بثوبها الجميل فى وقت واحد.

إنما يأتى الفصل لدى الدارسين ممن يحللون الآثار الأدبية إلى عناصر متميزة كما يحلل الكيميائى مادته المختلطة فيردها إلى عناصرها الأولى، فالصورة عنصر هام من عناصر الأسلوب الأدبى، بل هى أقوى عناصره على الإطلاق(٢).

فالصورة الشعرية أداة فنية يستخدمها الشاعر لنقل المعنى الذى اختمر فى فكره والإحساس الذى فاض به وجدانه من خلال عرضه لمشهد من الواقع والخيال.

وحين نتأمل الصورة فى شعر الأندلسيات نجد أنهن يمتلكن قدرة رائعة على رسم الصورة بحيث يصفن المرئيات وصفاً يجعل قارئ شعرهن ما يدرى أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود ويصفن الوجدانيات وصفا يخيل للقارئ أنه يناجى نفسه، ويحاور ضميره.

---

(١) انظر: النقد الأدبى من خلال تجاربى/ مصطفى عبد اللطيف السحرتى/ ط معهد الدراسات العربية العالية/ ١٩٦٢م، ٨٤، ٩٤.

(٢) دراسات أدبية/ د/ محمد رجب البيومى/١/٢٣٥، ٢٣٦.

فقد وصفت حمدونة بنت زياد الشاعرة الأندلسية واديها بأجمل ما يوصف به واد، فرسمت له صوراً، وفتقت حوله معانى من أبرع ما رسم من صور وأرق ما فتق من معانى إذ تقول:

وقانـــا لفحـــة الرمضـــاء واد ∴ ســـقاه مضـــاعف الغيـــث العمـــيم

حللنـــا دوحـــة فحنـــا علينـــا ∴ حنـــو المرضـــعات علـــى الفطـــيم

وأرشـــفنا علـــى ظمـــا زلالا ∴ ألـــذّ مـــن المدامـــة للنـــديم

يصـــد الشـــمس أنـــى واجهتنـــا ∴ فيحجبهـــا ويـــأذن للنســـيم

يـــروع حصـــاه حاليـــة العـــذارى ∴ فـــتلمس جانـــب العقـــد النظـــيم

لقد رسمت الشاعرة أكثر من صورة متحركة بهيجة الألوان والظلال لواديها الجميل الذى يشبه حصاه حبات اللؤلؤ فيروع العذارى الحاليات خشية أن تكون عقودهن قد انفرط نظمها فيسارعن فى ذعر إلى تلمس مكان العقود من لباتهن. بالإضافة إلى صورة التشبيه الرائعة فى البيت الثانى، وليس هناك أحن من المرضعة على وليدها.

فالصورة مليئة بالتشبيهات والاستعارات التى توضحها وتبرزها، كما أن الشاعرة مزجت فيها العديد من الألوان وجمعت بين الحس المرهف، والملاحظة الدقيقة، فأتت الصورة متآزرة محققة وظيفتها فى البناء الشعرى.

ومن صورها التى رسمتها من واقع بيئتها ومعيشتها الصورة التى رسمتها وهى تمرح هى وصديقاتها على ضفاف نهر واديها حين استهوتها مياهه الصافية، فنضت ثيابها هى وصديقاتها، وألقين بجسدهن البض إلى أحضان الماء آمنات على أنفسهن كل الأمان، فهى ابنة الواد وعاشقته، ثم لا تلبث حمدونة أن تغنى للوادى الوارف والطبيعة الفينانة وللنهر الجارى السلسال ولنفسها الصافية ولجمال الأنوثة والصبا ممثلا فى قوامها المياد المتحرك سابحاً تحت الماء ولفتنة صاحباتها يتلاعبن سعيدات، واللحظ والذوائب والوجه الصبيح فوق صفحة النهر، وترسم الشاعرة صوراً وتبدع تشبيهات وتعقد المقارنات من خلال عرض صور الطباق والمقابلة بين بياض الوجه وسواد الذوائب.

تقول الشاعرة:

أباح الدمع أسرارى بوادى	**له فى للحسن آثار بوادى**
فمن نهر يطوف بكل روض	**ومن روض يطوف بكل وادى**
ومن بين الظباء مهاة أنس	**سبت لبي وقد ملكت فؤادي**
لها لحظ ترقده لأمر	**وذاك الأمر يمنعنى رقادي**
إذا سدلت ذوائبها عليها	**رأيت البدر فى أفق السواد**
كأن الصبح مات له شقيق	**فمن حزن تسربل بالحداد**

فقد حولت الشاعرة المفردات الحسية فى الصور الشعرية السابقة من مجرد مفردات جامدة إلى إشارات انفعالية ربطتها بالطبيعة الأندلسية الخلابة ومظاهرها الرائعة.

كما اعتمدت حمدونة بنت زياد فى صورتها الشعرية على تحريك مجموعة الأفعال والأسماء فى دلالتها أو علاقتها مع بعضها للتعبير عن انفعالاتها بمظاهر البيئة الأندلسية وهى فى هذا تتبع ما يفعله شعراء الشعر الجديد من محاولة انقاذ الشعر من تهويمات الرومانسية المسرفة فى الخيال(١).

فحاولوا فى أغلب تجاربهم الشعرية الإقلال من استعمال الصفات والاستعاضة عنها بالإكثار من الأفعال والصيغ المشتقة منها التى يمكن أن تحمل معنى الصفة فى داخلها دون أن تكون إضافات على الأشياء.

فمن أباح الدمع إلى نهر يطوف، ثم روض يرف، ثم سبت لبى وملكت فؤادى إلى لحظ ترقده، ثم يمنعنى رقادى وسدلت ذوائبها ورأيت البدر ثم مات وتسربل.. ..

ومن صور شاعرات الأندلس التى فرضتها طبيعة حياة الأندلس ومجالات الشعر صورة المرأة المتغزلة المتعشقة التى يستبد بها الشوق إلى صاحبها، فتجعله معشوقاً مطارداً وتجعل من نفسها عاشقة ولهانة، تتغزل فى سحر ثناياه وفى ريقه الذى هو أعذب من الخمر، فهى صورة جديدة كل الجدة على شعر

(١) راجع: لغة الشعر العربى الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية د/ السعيد الورقى/ط/دار المعارف /١٩٨٣م، الثانية/١٤٨.

المرأة، بل وفى دنيا الشعر العربى ككل، وصورة لا يقبلها مجتمع عربى غير مجتمع الأندلس.

تظهر فيها المرأة فى قمة التحرر؛ حيث تكون هى العاشقة لا المعشوقة، المتلهفة لا المتلهف عليها، المندفعة المتجرأة الصبة، تقول:

أزورك أم تزور فإن قلبى ... إلى ما تشتهى أبداً يميل
وقد أمنت أن تظمى وتضحى ... إذا وافى إلي بك القبول
فثغرى مورد عذب زلال ... وفرع ذوابتى ظل ظليل
فعجل بالجواب فما جميل ... أناتك عن بثينة يا جميل

وإذا أمعنا النظر فى هذه الصورة المستحدثة سنرى أن الشاعرة قد اعتمدت فيها على عدد من الأفعال فى صيغ الحاضر والماضى وختمتها بفعل أمر "فعجل" وسنجد أن النسبة الغالبة هى للفعل الحاضر.

"أزورك، تزور، تشتهى، يميل، تظمى، تضحى"

بالقياس بالفعل الماضى، أمنت، وافى.

- وقد مزجت الشاعرة فيها بين مشاعرها الجياشة وبين الطبيعة الأندلسية الرائعة ظهرت فى البيت الثالث بالإضافة إلى ما نلمسه من مدى توفيق الشاعرة فى انتقاء الألفاظ والعبارات الموحية، التى تشع فيها الموسيقى الداخلية التى تتناسب مع الجو النفسى للشاعرة، كما أنها وشّتْ الصورة بالتورية اللطيفة فى مخاطبة صاحبها "بجميل".

- اعتمدت شواعر الأندلس فى نباء صورهن وأخيلتهن على المبالغة والتفخيم والزعم والادعاء، ويظهر هذا جلياً فى أشعار ولادة بنت المستكفى.

فلنستمع إليها حين ترسم صورة لغيرة المرأة المحبة حين تدافع عن جمالها وكبريائها، فتشبه نفسها بالغصن المثمر، وتجعل من نفسها نداً للبدر فى سمائه، ثم تزين أبياتها بلون من التلاعب اللطيف ظهر فى الطباق بين البدر والمشترى، فهذا منير مشرق وذاك مظلم آفل كما لونت الصورة بصور الإثبات والنفى فطابقت بين الاثمار وعدم الاثمار فى الغصن. تقول:

لو كنت تنصف فى الهوى ما بيننا ... لم تهو جاريتى ولم تتخير
وتركت غصنا مثمراً بجماله ... وجنحت للغصن الذى لم يثمر
ولقد علمت بأننى بدر السما ... لكن دهيت لشقوتى بالمشترى

- بعض صورهن مستمدة من مخزونهن الثقافى بمعنى أنهن يقلدن فيها المشارقة. مثل صورة حفصة بنت حمدون الحجارية شاعرة وادى الحجارة حين تظهر شخصيتها كامرأة تبدى الدلال والتيه على من يدل عليها أو يتيه مستمسكة كل الاستمساك بكبرياء المرأة العربية العفيفة المعشوقة المطلوبة المصونة.

تقول حفصة:

لى حبيب لا ينثنى بعتاب ... وإذا ما تركته زاد تيها
قال لى: هل رأيت لى من شبيه ... قلت أيضاً وهل ترى لى شبيهاً

إنها صورة من صور الشعر العربى الشرقى المتداولة بين شعراء وشاعرات المشرق العربى، وقد أحسنت الشاعرة فى نسج صورتها وانتقاء ألفاظها واختيار معانيها وتحسس قوافيها.

إنها صورة لمعادلة طريفة فى دنيا الحب بين حبيبين متأدب كلاهما على الآخر، فأبت حفصة أن تنزل عن كبريائها فكانت هذه "المخالصة" الأولى من نوعها تصدر شعراً من قريحة شاعرة محبة.

نستطيع أن نحدد أهم معالم الصورة الشعرية وملامحها عند شواعر الأندلس من خلال ما عرض من شعرهن:

أولاً: أنهن صغن شعرهن على صور وأخيلة من القديم "استعارات – تشبيهات – كنايات – محسنات بديعية"

ثانياً: أخيلتهن منتزعة أحياناً من الطبيعة الأندلسية الفاتنة الحية والصامتة، كما أنها مستمدة أحياناً من مخزونهن الثقافى بمعنى أنهن مقلدات للمشارقة.

ثالثاً: بعضهن اعتمدن فى بناء صورهن وأخيلتهن على المبالغة والتفخيم والزعم والادعاء.

رابعاً: عبرت صورهن عن البيئة الأندلسية المستوحاة من الواقع والمجتمع الأندلسى.

خامساً: أن جل الصور والأخيلة منبثق من المدارك الحسية وكانت حاسة البصر أنشطها فى تشكيل الصورة بمعنى أنهن بصريات اهتممن فى أخيلتهن بالمرئيات حيث كان إدراكهن للمرئيات واضحاً دقيقاً ومستوعباً وكان لحاسة السمع بعض الحضور فى عمل الخيال. وكذلك حاستى الشم والذوق، أما حاسة اللمس فتبدو كالمعطلة فلم يعثر على صور تدرك بحاسة اللمس.

سادساً: استخدامهن للأفعال فى صورهن للتعبير عن المواقف الانفعالية المتزنة داخل التجارب والمواقف فتكون بمثابة الاستحضار الانفعالى لهذه المواقف وتلك التجارب.

خامساً

الموسيقى الشعرية

الموسيقى دعامة من أهم دعامات العمل الفنى الشعرى، لها تأثيرها فى النفس، إذ تساعد على أن تصل إليها الأفكار والمشاعر فى صورة صوتية تأنس بها وتتفتح لها، وتجد فيها من المتعة ما لا تجده فى الكلام العادى المجرد من هذه الموسيقى.

«فهى وسيلة للتعبير عن مفارقات المعانى، وظلالها العاطفية وألوانها النفسية، التى كثيراً ما تعجز اللغة المنثورة عن استخراجها من باطن النفس»(١).

فحين ينفعل الشاعر بموضوعه وتثور نفسه الجياشة، ويستبد به الإحساس ويسيطر عليه الانفعال يلجأ إلى الموسيقى لأنها أقرب الفنون تعبيراً عن الاحساسات، وأبلغها فى التعبير عنها، وتوصل أثرها إلى المتلقى، ولا يدع الشاعر الوزن الذى نشأ عن انفعاله حراً طليقاً يظل خاضعاً لسيطرته ليفرض عليه ضرباً من الوزن؛ ولذا فلا بد من عمل إرادى يحول العاطفة الهادرة التى تمور فى نفس الشاعر إلى نغم رتيب، حتى لا تبقى مجرد تفجر عاطفى، وعلى هذا فلا يمكن تحقيق الموسيقى فى الشعر إلا بإيجاد توازن بين العاطفة والإرادة(٢).

وحين نبحث فى بحور الشعر التى نظمت عليها شواعر الأندلس قصائدها نجد أن الكامل احتل المرتبة الأولى يليه الطويل، فالبسيط، ثم السريع، فالوافر، فالخفيف ثم المجتث، فالرمل، وأخيرا المتقارب.

أما بقية بحور الشعر فلم ينظمن عليها شعراً وهى:

الرجز، والمضارع، والمقتضب، والهزج، والمديد، والمنسرح، والمتدارك.

وقد نظمت شواعر الأندلس على كل بحر أغراضا متعددة إلا أنه من الملاحظ أنهن طرقن:

- غرض الهجاء فى الغالب على بحر السريع.

---

(١) فن الشعر/ د/ محمد مندور/ ط الهيئة العامة للكتاب/ بدون/١١٨، وانظر: الأدب وفنونه/د/محمد مندور/ ط/ مكتبة نهضة مصر ١٩٦١م، ٢٩.

(٢) عناصر الابداع الفنى فى شعر الأعشى /عباس بيومى عجلان/ ط/ دار المعارف ١٩٨١م، ٢٩٧، ٢٩٨.

- وغرض الغزل على بحر الطويل.
- وغرضى المدح والوصف على بحر الكامل.
- كما اجتنبن القوافى الصعبة الضيقة كالألف والخاء والصاد والطاء والغين، والشين، وغيرها، وتخيرن منها المطلقة، وكان معظم شعرهن على قوافى الراء بالدرجة الأولى، والدال بالدرجة الثانية، ثم الميم واللام والنون والباء.
- أتى أكثر شعرهن على القافية المطلقة، وكانت أعلى نسبة منه على مجرى الكسرة ثم الفتحة.
- والملاحظ على شعرهن أنهن يحترمن قواعد القافية فلم يعثر فى شعرهن على عيب من عيوبها كالايطاء والاقواء.
- والملفت للنظر أيضاً فى شعرهن أنه يخضع فى الجملة لقاعدة الواحدات الثلاثة "وحدة البحر، وحدة القافية، وحدة البناء فى شكل عمودى".

فقد التزمت شواعر الأندلس بنمط القصيدة التقليدية من حيث البناء فى الشكل العمودى فلم نعثر على قصيدة من شعر التفعيلة أو الشعر الحر أو المربعات أو المخمسات أو المسمطات على نحو ما كان يفعل شعراء الأندلس فى موشحاتهم. إذن فقد سارت شواعر الأندلس على الجانب التقليدى فى شكل الشعر.

كما التزمن بوحدة البحر، فنادراً أن نجد قصيدة أو قطعة شعرية منظومة على أكثر من بحر شعرى.

- والتزمن أيضاً بوحدة القافية أو القافية القديمة فالقصائد لديهن مصاغة على نمط القصيدة التقليدية وإن كان مضامينها جديدة.

وقد اهتمت شواعر الأندلس بتوفير لون من الموسيقى الداخلية فى قصائدهن، وذلك بإيجاد جمل متناسقة من الناحية الصوتية أوعن طريق تناسق الألفاظ وتجاورها ومن ذلك قول نزهون الغرناطية عندما أجازت قول الكتندى المخزومى حين طلب منه أن يجيزه فأفحم وأطال فكره ولكنه لم يستطع أن يحير جواباً حين قال له أجز:

لو كنت تبصر من تكلمه

فقالت نزهون:

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح فى غلائله

والجناس اللفظى وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ، فهو ليس فى الحقيقة إلا تفننا فى طرق ترديد الأصوات فى الكلام حتى يكون له نغم وموسيقى، وحتى يسترعى الآذان بألفاظه، كما يسترعى القلوب والعقول بمعانية، فهو مهارة فى نسج الكلمات، وبراعة فى ترتيبها وتنسيقها ومنه قول الشاعرة حمدونة بنت زياد:

أباح الدمع أسرارى بوادى له فى الحسن آثار بوادى
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظباء مهاة إنس سبت لبى وقد ملكت فؤادى
لها لحظ ترقده لأمر وذاك الأمر يمنعنى رقادى

ومنه قول ولادة:

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وقول حفصة بنت الحاج:

ثنائى على تلك الثنايا لأننى أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها – لا أكذب الله – إننى رشفت بها ريقاً أرق من الخمر

ومنه قول أم العلاء بنت يوسف الحجارية فى وصف الطبيعة فى واديها المتواضع:

لله بستانى إذا يهفو به القصب الندى
فكأنما كف الريا ح قد اسندت بندا فبندا

ومنه قول أمة العزيز: (١)

لحاظكم تجرحنا فى الحشا ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذى أوجب جرح الصدور

(١) نفح الطيب/٤/١٧٠.

الخاتمة وأهم النتائج

إن تفرس الشعر النسائي الأندلسي يبعث على الإعجاب والاندهاش ، نظراً لما تتضمنه هذه الأشعار من حرية التعبير مما يدل على المكانة التى بلغتها المرأة فى المجتمع الأندلسي والذي لم تبلغه المرأة العربية فى أى مجمتع من المجتمعات الشرقية فى ذلك الوقت.

وأود أن أسجل في هذا المقام جملة من الملاحظات على دراستي لنتاج الشواعر الأندلسيات قبل عرض نتائج هذه الدراسة ومن أهم تلك الملاحظات :

١- كثرة الأدبيات فى الأندلس كثرة فاقت الخيال ، ولئن زخر المشرق العربى بالشاعرات أمثال الخنساء ، وليلى الأخيلية، وعليه بنت المهدي، إلا أن الأندلس قد ضم بين ربوعه عدداً من الشاعرات ، يجعل شاعرات المشرق إلى جوارهن قليلاً جداً .

٢- فاقت التجربة النسوية الإبداعية فى الأندلس قرينتها كماً وكيفاً ، فشعر شاعرات المشرق قليل الكم إذا قيس بشعر شاعرات الأندلس.

٣- مارست شاعرات الأندلس التجربة الإبداعية بحرية تامة فى الوقت الذى حرمت منها شاعرات المشرق ، حيث خضعت شاعرات المشرق إلى حدٍّ ما لتقاليد بعينها تحسب عليهن حركاتهن وسكناتهن ، وتمنع وتسمح، وتحاسب على القول والفعل ، بينما كانت الصورة فى الأندلس مختلفة إلى حد كبير.

٤- من ملامح نجاح التجربة الإبداعية النسوية الأندلسية أن المرأة الأديبة الشاعرة قد شاركت الشعراء الرجال فى معظم فنون الشعر وأبوابه، فقد تناولت شعر المدح والغزل ، والوصف ، والفخر، والهجاء والاستعطاف.

استطيع بعد ما تقدم أن ألخص أهم النتائج التى استخلصتها من هذه الدراسة فى النقاط التالية :

أولاً :

لقد أثبتت المرأة الأندلسية القدرة على قول الشعر من خلال الأشعار التى ذكرها المؤرخون فى مصادرهم ، وبرهنت على أنها تمتلك موهبة لا تقل عن موهبة الرجل من حيث القدرة على العطاء ، فكان نتاجها الشعري البديع.

ثانياً :

شاعرات الأندلس أفسحن لشعرهن مكاناً رحيباً ، وفرضن وجودهن بصورة لم تحدث للقلة من زميلاتهن فى المشرق العربى إلا أنهن لم يسهمن فى كل فنون الشعر وموضوعاته وأكثر ما قلن فيه من الأغراض الغزل والمديح ووصف الطبيعة والهجاء .

ثالثاً :

اتصفت بعض شاعرات الأندلس بالعفة والتعقل فى غزلهن بينما ذهبت البعض الآخر إلى غاية من التطرف والمجون.

رابعاً :

كانت الطبيعة الأندلسية الضاحكة ولفتاتها الباسمة مصدر الالهام لشاعرات الأندلس ، حيث حركت مشاعرهن وعواطفهن، فهاموا بها حباً بحكم أن الطبيعة من أقوى روافد الفكر وأجملها على الاطلاق، فالفن فى جوهره ليس تقليداً أعمى للطبيعة بقدر ما هو استلهام لها وأخذ منها وتفاعل معها ، تفاعل هو تعبير عن التأثر بها والتأثير فيها.

خامساً :

المرأة فى الأندلس صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة ترى فى المرأة ظلها وجمالها ، فقد وصفوا المرأة بالجنة والشمس ، وإذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن النرجس عيونا ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً، ومن ابنة العنب رضاباً .

سادساً :

شبهت بعض شاعرات الأندلس بأعلام شاعرات المشرق مثل حمدة بنت زياد المؤدب التى لقبت بخنساء المغرب.

سابعاً :

طرقت الشاعرة الأندلسية موضوع الهجاء بكثرة ، وخاصة فى القرن الخامس الهجرى، وأفحشت فيه وتجرأت على ذكر السوءات والعورات، كما كان عند ولادة ومهجة ونزهون.

ثامناً :

شاع بين شواعر الأندلس الغزل بالمؤنث أو "الجنسية المثلية" كما عن ولادة وحمدونة، وهذه الظاهرة لم تكن معروفة عند شاعرات المشرق، مما يدل دلالة واضحة على جانب من جوانب انحلال المجتمع الأندلسي.

تاسعاً:

كشفت لنا أشعار المرأة الأندلسية عن تمايز طبقى واضح فى مجتمع المرأة الأندلسية، فبينما نجد بعض النساء يقصدن الأمراء والسلاطين للتكسب بشعرهن بسبب الحاجة والفقر، نجد فى الوقت نفسه بعض الشاعرات يعشن عيشة مترفة مثل ولادة، وحفصة الحجارية.

عاشراً:

أثبتت الدراسة بأنه ليس هناك أدب نسائي وآخر رجالي ، بل هناك أدب وموهبة مع اعتراف أن هناك مواقف تكون فيها الكاتبة أقدر على سبر أغوار المرأة لكونها امرأة.

حادي عشر:

تراوحت السمات الفنية فى الشعر النسائي الأندلسي بين التجديد الموضوعى والتركيز العاطفى والتجويد الفنى.

ثاني عشر :

دفع التراث الشعري الذى خلفته شاعرات الأندلس بعدد من الشاعرات المعاصرات – خاصة فى قرطبة – لتكوين جمعية أدبية تجمعهن على دراسة ما أمكنهن الوصول إليه من الشعر النسائي الأندلسي، سواء عن طريق كتابات المستشرقين وترجماتهم، أو عن طريق البحث فى المخطوطات التى تم نقلها إلى اللغة الأسبانية على عهد الملك "الفونس العاشر"، الذى كان أول من أنشأ مدرسة للترجمة فى "طليطلة" كانت نتيجتها الباهرة هى نقل معظم المخطوطات العلمية

والأدبية من اللغة العربية إلى اللغة الأسبانية وبالتالى أمكن نقل هذه المخطوطات إلى اللغات الأوربية الأخرى التى قامت عليها النهضة الأوربية المعاصرة بداية من عصر التنوير.

ومن خلال إطلاع شاعرات قرطبة على الكثير من الشعر الأندلسي القديم لشاعرات الأندلس ، حاولت شاعرات قرطبة المعاصرات أن تكون إضافتهن التجديد فى الشعر الاسبانى المعاصر عبر تمثيل هذا التراث العربى وتضمينه لقصائدهن ، أو التغنى بتلك الحقبة التى تعتبر جزءاً أساسياً وأصيلاً من ثقافتهن كشاعرات ينتمين إلى الأندلس المعاصرة، وريثة الأندلس العربية .

المصادر والمراجع

١- **الإحاطة فى أخبار غرناطة** للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق / محمد عبدالله عنان / ط/ مكتبة الخانجى بالقاهرة.

٢- **أدبيات أندلسية** – د/ عبدالله حسين / ط / مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣- **الأدب الأندلسي التطور والتجديد** /د/ محمد عبدالمنعم خفاجى – ط/ دار الجيل – بيروت ، ط/ الأولى /١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٤- **الأدب الأندلسي فى عصر الموحدين** – د/ حكمة على على الألوسي – ط/ مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٧٦م.

٥- **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة** / د/ أحمد هيكل الطبعة السادسة / ١٩٧١م/ ط/ دار المعارف بالقاهرة.

٦- **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**/ د/ مصطفى الشكعة ط/ دار العلم للملايين/ بيروت – لبنان / الطبعة الثالثة /١٩٧٥م.

٧- **الأدب وفنونه** /د/ محمد مندور /ط/ مكتبة نهضة مصر/ بدون .

٨- **الأعلام** لخير الدين الزركلي /ط/ دار العلم للملايين ط/ الثالثة.

٩- **أعلام النساء /** عمر رضا كحالة / ط/ مؤسسة الرسالة .

١٠- **بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس** / أحمد بن يحى بن أحمد بن عميرة الضبى / ط/ دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٧م.

١١- **تاريخ الأدب العربي** / أحمد حسن الزيات / ط/ دار نهضة مصر للطبع والنشر / ط/ الثانية .

١٢- **تاريخ الأدب العربى** / عمر فروخ / ط/ دار العلم للملايين – بيروت – بدون.

١٣- **تاريخ الأدب العربى** / عصر الدول والإمارات "الأندلس" د/ شوقي ضيف / ط/ دار المعارف .

١٤- **تاريخ الأدب الأندلسي "عصر سيادة قرطبة"** د/ إحسان عباس / ط/ دار الثقافة / بيروت ط/ الثانية ١٩٦٩م.

١٥- **تاريخ آداب العرب** / مصطفى صادق الرافعى / ط/ دار الكتب العلمية – بيروت –لبنان /ط/ الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

١٦- **جذوة المقتبس فى تاريخ الأندلس للحميدى.**
تحقيق إبراهيم الإبياري /ط/ دار الكتب المصرية / دار الكتاب اللبنانى /ط/ الثانية /١٩٦١م.

١٧- **دراسات أدبية** /د/ محمد رجب البيومى /ط/ مطبعة السعادة ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

١٨- **الذخير فى محاسن أهل الجزيرة** لأبى الحسن على بن بسام الشنترينى / تحقيق / د/ لطفى عبدالبديع ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب /١٩٧٥م.

١٩- **الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث** / مصطفى عبداللطيف السحرتى/ ط/ مطبعة المقتطف.

٢٠- **طوق الحمامة** لابن حزم الأندلسي ط/ دار ابن خلدون –بدون.

٢١- **عناصر الإبداع الفنى فى شعر الأعشى** / عباس بيومى عجلان – ط / دار المعارف / ١٩٨١م.

٢٢- **فن الشعر** د/ محمد مندور /ط/ الهيئة العامة للكتاب /بدون.

٢٣- **فى الأدب الأندلسي** / د/ جودت الركابى /ط/ دار المعارف ١٩٦٦م/ القاهرة.

٢٤- **قضايا النقد الأدبى المعاصر** – د/ محمد زكى العشماوى ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب / ١٩٧٥م.

٢٥- **لغة الشعر العربى الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية** د/ السعيد الورقى / ط / دار المعارف / ط/ الثانية ١٩٨٣م.

٢٦- **معجم الأدباء** /ياقوت الحموى / ط/ دا رالغرب الإسلامي .

٢٧- **المُغرب فى حُلى المغرب** لابن سعيد المغربى / تحقيق /د/ شوقي ضيف/ ط / دار المعارف.

٢٨- **ملامح التجديد فى النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجرى** د/ مصطفى محمد أحمد على السيوفى – ط/ الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٢٩- **النقد الأدبى من خلال تجاربي/** مصطفى عبداللطيف السحرتى / ط/ مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٢م.

فهرس

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة
- مقدمة	١٦
- تمهيد.....	٢٠
شواعر الأندلس ـ بواعث الشاعرية .	
أولاً : الطبيعة.....	٢١
ثانياً : مجالس الشعر.....	٢٥
ثالثا : الموسيقى والغناء.....	٣٣
رابعاً : الحرية.....	٣٨
خامسا : العقلية المتزجة.....	٤١
الفصل الأول :	
شواعر الأندلس ـ أغراض الشعر وميادينه	٤٥
أولاً : المدح.....	٤٦
ثانياً : الغزل.....	٥٠
ثالثاً : الشكوى.....	٥٦
رابعاً : الوصف.....	٦٢
خامساً : الهجاء.....	٦٧
الفصل الثانى :	
شواعر الأندلس ـ قصص الغرام المشبوب	٧١

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحة

أولاً : ولادة بنت المستكفى وابن زيدون..... .... ٧٤

ثانياً : حفصة بنت الحاج الركونية وأبو جعفر أحمد بن سعيد. ٨٤

ثالثاً : اعتماد الرميكية والمعتمد بن عباد..... .... ٩٠

الفصل الثالث:
شواعر الأندلس ـ ملامح فنية ٩٢

أولاً : المضمون والمحتوى..... .... ٩٣

ثانياً : التشكيل اللغوى والأسلوبى..... .... ١٠٠

ثالثاً : التجربة الشعرية..... .... ١٠٨

رابعاً : الصورة الشعرية..... .... ١١٤

خامساً : الموسيقى الشعرية..... .... ١٢١

الخاتمة وأهم النتائج... .... ١٢٥

المصادر والمراجع..... .... ١٢٩

الفهرس..... .... ١٣١